رواية

ثورة مهيوب

لمياء يحيى الإرياني

ثورة مهيوب

رواية

لمياء يحيى عبدالرحمن الارياني

ريحانة

-1-

من أين أبدأ قصتي أيها الصباح ؟

لم يعد بمقدوري أن أصفك بالصباح الجميل النقي ! فلم تعد جميل ولا نقي أيها الصباح اليمني المتعثر بصيحات زمن فر من ساحات الأمان .

من أين أبدأ قصتي ؟ ومازال بيني وبين حلمي صوت بارود وزمجرة رصاص مجنون لا يعرف في أي صدر يستقر !

ما لذي يحدث ؟! ومن أين غمرتني كل هذه السيول البشرية ؟ ماذا يريدون ؟ ولما هم هنا بالذات ، في شارعي بالذات ؟ مزاحمين رصيفي بالذات ؟ مبعثرين عالمي ذاك الذي كنت قانعا به راضيا عليه .. فما عادت تلك البوفيه تفتح أبوابها ، وما عاد ذاك الزلابيا وذاك الشاي في علبة الفول الصدئة يصلاني كألذ فطور في الدنيا , وعمارة العم صالح غمرتها الأتربة والأوجاع وضاقت بساكنيها .. نوافذها أوصدتها رياح الخوف من رصاصات طائشة ، وسطحها غزاه المجهولون الملثمون واستوطنه قسرا من لا يعرفون الرحمة ولا يهابون الموت ..

اسئلة ظلت تحاصرني ، تحكم سيطرتها علي في زاوية ضيقة من كل تلك المساحات التي ظننتها ستبلغ المدى اتساعا ..

صباحاتي تغيرت .. شمسها وهنت .. وحدي منسي على هذا الرصيف تحت عمارة العم صالح لا أعرف كيف اصالح الزمن لعلني أحيا كما يحيا الاخرون . ثيابي الرثة الممزقة تصفني لكل من يراني .هذا أنا أحمد مهيوب الذي تشاكل مع الزمن منذ صرخته الاولى في الحياة معلنا قدومه اليها ..كنت معترضا منذ بداياتي الاولى رغم انهم اخبروني ان كل مولود يبدأ حياته هكذا .. لكنني كنت مختلف .اي والله كنت مختلفا منذ البداية .

كنت لازال متكاسلا فوق رصيفي تحت عمارة العم صالح عندما مر من أمامي العم صالح بثوبه الابيض الجميل وجنبيته اليمنية غالية الثمن والتي ورثها من ابوه الذي أهداها له الامام أحمد تحيط خاصرته بفخامة ، يفتخر بها دائما أمام جيرانه من سكان الحي مذكرا لهم انها هدية الامام أحمد لأبيه ، مرالعم صالح من أمامي مبتسما كعادته وقال لي وهو يلوح بيديه لصديق له مر في طرف الشارع :

- صباح الخير مهيوب ..كيف حالك ؟
- الحمد لله أتابع كل هذا الذي يحدث حولي وأنا خايف قوي .

ضحك العم صالح وقال مداعبا :

- ليش خايف مش الا انت ثوري .

بالتأكيد أنا ثوري وإلا فماذا تعني كل هذه الكلمات التي سجلتها على جدار عمارة العم صالح في الزاوية التي اسكن تحتها مباشرة .

حتما أنا ثوري فانا لست كغيري من الناس ، أي والله لست كغيري من الناس .

بلعت صمتي الذي كاد يقيدني بمحاولة تذكير نفسي باني فعلا ثوري ورديت على العم صالح وانا اقف مرحبا به :

- أكيد أنا الثوري الاول في هذه الحارة ، أنا تلميذ هزاع طالب العلوم السياسية ، لازم أكون ثوري.

أبتسم العم صالح وقال مخاطبا نفسه بصوت مسموع وهو يقطع الشارع للجهة الثانية متوجها لعمله كعادته كل صباح :

- ناهي لك . ثوري ثوري من شيعترض عليك .

كان العم صالح أول من عرفته في هذا الحي عندما قدمت اليه متسولا قبل ان ارتقي الى ماسح سيارات من الطراز الاول في شوارع صنعاء الجميلة والمحببة لقلبي الذي يعشقها ، فصنعاء مثلي تماما لا تشبهها مدينة أخرى ، أي والله لا تشبهها مدينة أخرى في الدنيا .

رجل في خمسينيات عمره ، متوسط الطول ، لا يستبدل الثياب اليمنية ابدا ، تراه دائما مرتديا الزنة[1] وجنبيته[2] الشهيرة تحيط خاصرته في خيلاء عظيم فهي هدية الامام أحمد لوالده في الزمن الجميل كما يردد دائما ، ولا ينسي ابدا (المشدة) يربط بها رأسه على الطريقة اليمنية المميزة فيخفي صلع رأسه الذي لم يراه أحد غيري .

يعيش العم صالح مع بناته وأبنه الوحيد بدون زوجته التي فقدها في صاروخ سقط على منطقة القاع في حرب 94 تلك الحرب اللعينة التي خربت بيته بالقاع وأرجعت زوجته لباريها في ثواني كلمح البصر ولكنها بقت في ذاكرته حتى اليوم .

قال لي ذات يوم أن زوجته كانت تنحدر من سلالات الاتراك التي قدمت الى اليمن في زمن بعيد وأنها حملت من جمال اسطنبول وروعتها الكثير، قال أنها كانت تشتهر بجمالها الذي لا يشبهه جمال ،حتى أن جدتها التي ورثت الجمال منها كانت احدى زوجات الامام أحمد والأقرب الى قلبه بسبب جمالها ذاك.

العم صالح بعد تدمير بيته باع ارضيته في منطقة القاع وأشترى هذه العمارة ربما من أجلي أنا ، حتى يأتي يوما وأسكن هذا الرصيف المحاذ لها وأروي لكم قصتي هذه ..أقول ربما .

---

[1] الزنة : الثوب الذي يرتديه الرجل اليمني

[2] الجنبية : الخنجر اليمني

-2-

من أين أبدأ قصتي أيها الصباح ؟

فانا لازلت أتصفح الايام مذهولا من تدفق احداثها فوق رأسي ، كأنني وحدي المعني بهذا الجنون ..

وأقولها لكم صراحة ،

تبا لكل تلك الأشواك أفسدت ربيع كان يحزم باقات الورد ليهديها لشباب لم يستنشقها من قبل ..

هكذا جرت الأمور في اليمن في ذاك الربيع الذي لم يشبهه ربيع أخر ،

كنت كعادتي استقبل صباحي وأنا داخل كيسي الخاص تحت نافذة عمارة العم صالح ، النافذة المكسورة من أحد اطرافها .

كنت قد استلهمت فكرة الكيس هذه من العم صالح عندما شرح لي كيف كان ينام في الزمن الماضي - الجميل كما أعتاد أن يسميه - أغلب اليمنيون داخل أكياسهم بأمان فطري ، فما كان مني إلا أن طلبت منه أن يسأل أحدى بناته أن تخيط لي كيسا ، وكعادتي لم أخجل أن أطلب منه أن يقول لها تخيطه بحيث يتسع لاثنان فأنا نادرا ما أقضي الليالي الطويلة وحيدا. لا أنسى في كل مرة وقبل أن أنهض من داخل كيسي - لا أنسي أن استرجع شريطي الدائم لحلم سأحققه ذات زمن لا اعرفه لكنه حتما سيأتي ، ولا أعرف كيف .. فقد كنت متيقنا أن كلمات هزاع تلك فوق جدار مسكني لابد أن تسكن صدري ذات زمن غافل منذ دهر لا أذكره .. ربما ليقيني أنني ثوري .. وقد أكون هكذا فعلا ، وإلا فماذا تعني تلك الكلمات التي التقطتها من هزاع ودونتها فوق جداري تحت النافذة المكسورة من أحد اطرافها .

كان يحلو لي عندما أستيقظ وحيدا في مكاني أن أمط رقبتي وأرفع وجهي باتجاه السماء وأفتح عيني كما لا أفعل خلال اليوم وكأنني أستعد لتلقي حفنة من ضوء الشمس تلقي بها في وجهي قبضة يد النسمة الصباحية الحالمة في أرض السعيدة ، كانت تفاجئني الشمس بشروقها مرتين..أي والله صدقوني كانت تشرق في سماء عالمي ذاك مرتين.

كنت سيد المكان بلا منازع .من منكم يصبح سيدا بتلك السهولة؟.صاحب المطعم الشعبي في طرف الشارع المجاور كان لا ينسى أن يأتيني بفطوري اليومي (زلابيا وشاي حليب داخل

قصعة الفول الصدئه) . يأتيني به يوميا بنفسه هكذا لأنني سبب سعده و بي فقط يفتح الله عليه متى ما بدأ يومه بتقديم وجبة الفطور لي برضا نفس خالصة لله .

تلك الوجبة كانت كفيلة بأن انسي ليلتي السابقة إن قضيتها وحيدا برفقة الظلام وأصوات حشرات الليل التي تطلق صفيرها بإذني حتى لا أنام ، كانت تلك الحشرات كثيرا ما تثير استفزازي إن هي تطاولت على جلالتي وتجرأت بالتسكع فوق جسدي الممد والملفوف بالكيس ، عموماً لا يهم فقد كنت محمي بفكرة الكيس الشيطانية تلك.

هكذا كانت كل أموري تتدبر برحمته ، حتى رغباتي الخاصة جدا تلك التي تصر الدنيا أن تشعرنا بها أننا لا نختلف كثيرا عن غيرنا من الكائنات الحية فيها ، كنت أسد ثقوبها بمشاركة – ريحانة – (تلك الخادمة) [3] التي كانت تشبه التفاح الفاسد ببقايا رائحته المحرضة ، كانت ريحانة تأتيني مساء وقد رشت نفسها بعطر رخيص تدعمه هي بغنج له رائحة نتنه ، كنت أعرف تماما كيف أجعل من ريحانة امرأة من حرير أبيض لا علاقة له البتة بلون بشرتها داكنة السواد ، كما كانت هي تعرف تماما كيف تجعل مني رجلا يصدق تماما أن لا رجلا سواه... لا يهم فالحياة كلها خدعة !.. والسعادة فيها وهم نحن من يختلقه ثم هكذا ببساطة نصدقه ، فقط لأننا نريد أن نصدقه .

ريحانة تلك البائسة الشقية التي تحمل ملامح محببة كثيرا ما شاركتني الرقاد داخل كيسي فوق بقايا كرتوني المتهالك ذاك الذي كنت أفترشه فوق الرصيف تحت نافذة الدور الأول من عمارة العم صالح فيضرب بجذوره عمقا في بطن الرصيف .. يرث من بطن الأرض برودتها ومن تلك الأرصفة المجاورة الخالية وحشة المكان ووحدة النفس .. لم تكن ريحانه تعرف من أين جاءت ولا ما هو سر بشرتها السمراء التي كانت تلاحقها أينما كانت . للألم رائحة لا تنسيها الذاكرة وللأمكنة ذاكرة لا ننساها نحن بني البشر .. وتبقى لحظاتنا الصادقة هي الأكثر بخلا في التواجد والحضور ،

كان صوتها يأتي إليَّ كمن ينفخ الرماد المتراكم فوق جمر قسوة الحياة ، لا هو أبقى على الرماد ولا هو أطفئ النار الحامية ،

- تقول منية أمي ؟ وتقول منو أبي ؟

سؤال يصفعني كفاً في كل مرة تسأله ريحانة، ما لهذه البلهاء تسأل فيما لا إجابة له عندي ، أليس لديها سؤال أخر تبدأ به ثرثرتها كلما التقينا ..

- والله مانا داري . المهم أنتي يا ريحانة موجود ! لمو عادك تفكري بأبوك وأمك . سكهي لك وبس من الهدرة الزايدة .

[3] الخدم : فئة من اليمنيين الاكثر فقراء ومن ذوي البشرة السوداء

ربما أنها لم تكن تتجاوز السادسة عشر من العمر. مليحة الملامح رغم سواد بشرتها ..عرفتها للمرة الأولى قبل ثلاث سنوات , كانت تتشاجر في سوق القات[4] المجاور لشارعي مع – خادمة أخرى - خطفت منها عود من القات تصدق به لها شيخ لا يمر يوم دون أن يأتي للمقوات[5] يشتري قات له ولنسائه الأربعة بما يكفي قوت يومي ويوم ريحانة عاما بأكمله وربما يزيد .

حينها أسرعت أنا خلف –الخادمة – التي خطفت عود القات وانتزعته منها عنوة قائلا :

- تسرقي وهم الكيف من يد معدمة .. لعنة الله عليك.

كانت ريحانة تتأمل المشهد مبتسمة بزهو الانتصار ولو على يدي أنا ، - أنا - من لا تعرف حتى اسمي ..

وقد أصرت ريحانة حينها أن يكون عود القات عربون محبة منها لي ، وهكذا كان عود القات هو المفتاح الذي شرع باب تعارفنا تماما كما تمنيت .

كنت أراها تكبر أمامي يوما بعد يوم .. وكنت أشعر أن حكايتي معها ستكون من تفاصيل رواية من نوع خاص .. وقد كان .

[4] القات : نبات أخضر يتناوله اليمنيون
[5] المقوات : السوق الذي يباع فيه القات

-3 -

جاءت ريحانة من مدينة تعز تبحث عن زمن أخر وصباحات أخرى في صنعاء ... هاربة من فقرها ووحدتها لا تعرف لها أب ولا أم ، فقد وعت على نفسها وهي في دار لليتيمات لم يكن أرحم لها مما ستعانيه خارجه ، أمام كل تلك المضايقات التي كانت تصادفها داخل دار الأيتام بسبب لون بشرتها ، كان لابد أن تفكر بالخلاص ، وتنفذ فكرة الهروب خارج أسوار الدار لتتلقفها الحياة بصعوبات أخرى .

في دار اليتيمات ولأنها ريحانة - الخادمة - وحدها كانت تجبر على تنظيف الحمامات ، وترتيب غرف الدار ، ونادرا ما كانت تسلم من سخرية اليتيمات داخل الدار في كل لحظة .

كانت تلقب بال - غدرا[6] - داخل دار اليتيمات ، ليس لها صديقات ولا أحد يحبها ،هكذا فقط لان بشرتها سوداء ، فكان حقا عليها الهروب .

في يوم كان بداية لجحيم من نوع أخر في حياة ريحانة قررت أن تهرب من دار اليتيمات الذي دخلته قبل أن تستكمل أسبوعها الأول من العمر عندما وجِدت أمام باب الدار داخل سله صفراء ، ملفوفة بخرق بالية قذرة ، دليلا صارخا على لحظات محرمة بين اثنين في موقف ضعف بشري.

عاشت بالدار عشر سنوات كاملة دون أن تجد جواب لسؤالها الدائم عن سر اختلاف لون بشرتها عن بقية زميلاتها داخل الدار ، وتباعا عن سر اختلاف معاملة مسئولات الدار لها بكل تلك القسوة وكل ذاك التحريض على تنفيذ الفرار إلى العالم الخارجي الذي كان يرعبها كما قالت لي ريحانة لكنه كان ايضا المجهول الذي قد تجد فيه خلاصها .

وهربت ريحانة من دار اليتيمات .. هربت ليلا بعد أن رشت حارس الدار ببعض الريالات وكيس من الزبيب واللوز سرقته من مكتب مشرفة الدار .

[6] - غدرا باللهجة اليمنية تعني ظلام

الحياة خارج أسوار دار اليتيمات خيبت توقعات ريحانة منذ اللحظات الأولى ، هل تعمدت الحياة إيذاء ريحانة لتجعل منها المرأة التي عرفتها في دخولها الأول كيس نومي اللعين ،

فقد تلقفها مكر الرجال منذ الليلة الاولى لها في شوارع الحياة ، حيث أنهى عذريتها أحد ساكني الشوارع والأرصفة بينما كانت تنام فوق رصيف مقصي خلف عمارة موحشة خالية من السكان ، نهش جسدها الصغير دون أن يسمح لها حتى بالدفاع عن نفسها ، ثم تركها تتأمل تلك الدماء دون أن تستفيق من صدمتها ووجعها وخوفها أو تفهم ماذا حدث لها .. هكذا لأنها أنثى – كما قالت لي - وهي تروي بدايات خيبتها وخسارتها المتلاحقة في الحياة .

ولم تكن الليالي والأيام المتتالية أحن عليها من الليلة الأولى ، فقد تشردت وتسولت وضُربت وسُرقت وتم استغلالها كأبشع ما يكون عليه الاستغلال .

كل ما يخطر وما لا يخطر على بالكم تعلمته ريحانة من الشوارع والأرصفة وجيرانها فيها ، طرقت كل الأبواب المفتوحة والموصدة ، لم تبخل على من تحبهم بشيْ مطلقاً بقناعة ساذجة أنهم هكذا يحبونها أكثر ، فلا نية لها أن تصدق النوايا السوداء .

ولم يختلف الحال كثيرا عليها عندما وصلت صنعاء بحثاً عن وهم سعادة لا وجود لها في شوارع أشد قسوة من شوارع تعز.

لم تكن ريحانة تعلم أن أوجاع الفقر تنتقل معها اينما كانت .. كانت ريحانة مثل شجرة منسية لا أهل لها ولا عنوان .. لذا كثيرا ما كنت أستضيفها في كيسي ذاك ، وأصدقكم القول بعيدا عن الخبث الذكوري وتوابعه ، كنت فعلا اشفق عليها وارثي لوحدتها وتسكعها في الأزقة ..

- أين شا ترقدي اليوم ؟

كان ذاك سؤالي الأول الذي فتح باب الجحيم على مصراعيه لنا نحن الاثنان .. لم يكن ينقصنا إبليس ووسوسته داخل كيسي ذاك فقد كان يسبقنا بالدخول ويستضيفنا في عالم من الجنون .

ريحانة .. حلم الدنيا في بداياته ، لم تكن تعرف من الحياة الا التسول نهارا والعبث معي ليلا ، كانت تقاسمني بعض من المال الذي جمعته خلال يومها إذا ما عرفت أني لم أمسح زجاج سيارة واحدة في ذاك اليوم ، لم تكن تبخل علي في شيء مطلقا ، وكانت تصدق بسذاجة الصغار أن لا امرأة سواها تدخل كيسي اللعين ابدا ، هكذا هن النساء دائما بسذاجتهن يصدقن كل ما يريدين تصديقه ولو كان مفضوحا ، كانت تكتفي بتهديدي أن أنا فعلت ذلك أن تمزق الكيس بأسنانها ودائما تردد " اني حذرتك وأنت حر " .. والغريب أنها لم تكشف كذبي حتى مرة واحدة .

وفي المرة الأولى التي تكورت فيها بطنها بفعل عبثي المجنون بها جاءتني تضحك سعيدة بالكارثة التي ابتلعتها أحشائها دون أن تدري ،

قفزت كطفلة فوق كرتوني المتهالك وتكومت بجانبي كقطة سوداء اليفة تبحث عن شيء من الحنان وقالت لي بدلال أزعجني كثيرا وهي تتشبث بساعدي وتدفن برأسها في صدري بنشوة عالية من الفرح والجنون ..

- قدني شاكون أم . أحمد ..أني حامل .

صدمتني كلماتها ، اعادتني لواقعي المر وحقيقة فقري وجنوني معها بدون تفكير بالعواقب التي قد تهلكني ، كأنني صدقت كذبي عليها بأن لحظاتنا تلك ما هي إلا عبث بعيد عن قوانين الطبيعة وسر الحياة ، وأنه لن يترتب عليها الحلقة الثانية من قصة حياتها هي بنفس التفاصيل والأحداث ، هزني صوتي وانا ارد عليها قبل ان يبعثر فرحتها هي بلحظتها تلك :

- مو قلتي ؟. حامل ؟ من صدقك أنتي ذحين ؟

لم أكن أدرك أن لكل لحظة سعادة ثمن باهظ هكذا .

ولم أصدق أن عتمة الدخان الأسود لا تأتي إلا من حرائق شديدة الاشتعال .

هكذا فجأة وجدت خط أحمر يخط تحت كل جنوني ذاك داخل كيسي اللعين ، والحذر يتشمت باستهتاري به في كل مرة .

لم تكن الشمس كعادتها في ذاك الصباح . فقد حركت كلمات ريحانة في نفسي شيء غريب . شعرت بأني سأفقدها نهائيا فلم أكن مهيأ لكل ما قالت .أنا المتشرد في الشوارع والراقد فوق رحمة فوضى الأرصفة المنسية .

الزمن مازال جافا وصلبا معي لا يعرف كيف يلين لعلي أكون كغيري من البشر ولو لمرة واحدة .

وريحانة كانت لا تزال تتحدث وتتحدث دون توقف وبكثير من السعادة التي استفزتني ، حتى شعرت أني لم أعشقها أبدا وأنها لم تروق لي يوما ،

أو لست رجل كغيري من الرجال لي أن أعبث كما يحلو لي ثم أرحل دونما شعور بالذنب ؟

كل شيء منذ تلك اللحظة بدأ لي مفعما بالخطيئة ، تتابع نداءاتها التائهة ، تلقي بقيودها فوق أرصفة مكاني الواحد تلو الآخر وأنا أحاول مباغتة ذهولي فالوقت لم يفت بعد للهروب من واقع مجنون سيكبل حياتي ويزيد من شقائها . كيف تفكر هذه البلهاء حتى تتحدث عن الأمر بكل هذه الغبطة ، حتما هذه الطفلة لا تفهم ما تقول .

ركنت صوت ريحانة جانبا ، لست أنا من يترك الزمن يعبث به ، فلتقل ما تشاء ، كيف لها أن تثبت أني الفاعل ؟ فأنا لا وقت عندي لجنونها القادم دونما شك .

مسافة أخرى كانت تختصر ، وحقيقة مجنونة لا نية لي أن اعترف بها لأزيد هماً على همي

ولكني كنت دوما مستعدا أن أعترف .. أنه ربما وبالرغم من إن طرق حياتي كانت وعرة إلا أن حياة الشارع كانت تعرف كيف تفتح أمامي ممرات ، فانا أحمد مهيوب الذي يغلب الحياة

وسخافاتها اللزجة ، هذا الطفل لن يرى النور .. هكذا حدثت نفسي ، ربما بصوت عالي ، لم أدري إن كنت جادا في تلك اللحظة من التفكير المسموع . بدت لي في تلك اللحظة رائحة الزمن أشبة ما تكون برائحة الغياب والنهايات الحاسمة التي لا تقبل الجدل ولا تترك لنا مجالات للمفاصلة والمقايضة.

- أيش قلت ؟ كه سمعني مرة ثاني .

تدحرج صوت ريحانة صوبي مبعثرا ، حادا ، مصدوما ، لا ينتظر إجابة فعليه لما يسأل .

ولكني انا ،

لم اسمعها ما قلته مرة ثانية ، ولا عدت رأيتها مرة ثانية إلا في ساحة التغيير بعد سنوات ثلاث .

وظلت طفلتي من ريحانة عالقة في رحم رفضي وقسوتي تلك ..

تلك الصغيرة السوداء علمتني الدرس الصعب الأول في حياتي متلاطمة الأمواج .

- اللعنة ! أين ذهبت المجنونة ؟

جملة رددتها عدد من المرات باهتمام متناقص قبل أن أنساها تماما ما تبقي لي من عمر حتى اللحظة الراهنة والتي شغلتها – ساحة الجامعة - بصخبها ، وجنونها ، وهتافاتها التي رددتها أنا حتى قبل أن افهم معانيها ، ساحة التغيير التي أنستني ريحانة وبشرتها السوداء ذات الرائحة النتنة الممتزجة بعطر رخيص تضعه خصيصا من أجلي فقط .. ساحة الجامعة التي لخبطت كلمات هزاع وقلبتها في كل اتجاه حتى بت لا أفهم شيء .. ساحة التغيير ذاتها التي رأيت فيها ريحانة بعد سنوات ثلاث تحتضن طفلة تحمل بشرتها السمراء وتفاصيل ملامحي التي ورثتها عني عنوة بفعل جنوني واستهتاري ..لم يكن بمقدوري أن أوقف الزمن في تلك اللحظة الخاصة جدا ، لكنه توقف من تلقاء ذاته .. فهذه ريحانه وتلك حتما أبنتي تقبع مستكينة في حضنها ، يا لله ما هذا الإحساس الغريب ، لماذا شعرت برغبة عارمة بضم الاثنتين ،وتقبيلهما معترفا بخطاي طالبا المغفرة والسماح ..

ولماذا لم أفعل ذلك أبدا ؟.

عمارة العم صالح

- 1 -

لحظة اشتعلت في زمن استثنائي وعمت الحرائق الشوارع والأمكنة والبيوت والبشر كأنه فيضان من الرفض لكل شيء .. تغيرت الأصوات والملامح والوجوه .. زادت الأتربة وتكاثف الغبار حتى كاد يخنق المدينة ،

هل لمتشرد مثلي أن يخشى الرياح ؟

ما كنت أخشى حتى صوت الرصاص الذي بات من تفاصيل الأيام وممارستها الدائمة .

يا لله شيء ما في هذه المدينة .. في هذا الحي كان يجعل للأيام رتابة بنكهة خاصة جدا تتميز بها مدينة صنعاء وحي الجامعة على وجه الخصوص .

عمارة العم صالح ، عالم بحد ذاته . لا تترك دروب في نفسك دون أن تعرجها لكثرة ما تفرض عليك من الأسئلة التي غالبا هي لا إجابات لها على الإطلاق .

عشر سنوات متهالكة وأنا فوق رصيف عمارة العم صالح حتى بت ملمح من ملامحها ، وعلامة يشار إليها .

الدور الأول من عمارة العم صالح كان يسكن فيه هزاع الطالب في السنة الثالثة - علوم سياسية - جامعة صنعاء ، ذاك الذي كان دائما كمن يريد أن يعلن للعالم كله أنه عاشق لفلسفة السياسة وكلماتها التي كانت تصلني أثناء جلوسي الطويل تحت نافذتي حيث أفترش مكاني بقراطيس الكرتون وبقايا بطانيتي العفنة وأتناول قاتي لساعات طوال . أعترف لم أكن أفهم شيء من تلك الكلمات التي كانت تهاجم إذني بشراسة من يريد أن يفرض نفسه على الجميع ، لكن كان يحلو لي تدوينها بخطي الركيك فوق الجدار الملاصق لمقر إقامتي على الرصيف . في الواقع ساعدتني السنوات التي قضيتها في المدرسة حتى انتهيت من سادس ابتدائي قبل عودتي مع أسرتي من السعودية بعد حرب الخليج اللعينة التي أفقدت أبي عمله كبائع في محل تجاري محترم بجدة وجعلت مني متسكع داخل كيس خاص !

كان أبي يعمل بائعا في متجر محمود الشيخ الكفيل السعودي الذي كثير ما أذل أبي ، وأبي مثل كثير من اليمنيين الذين تركوا وطنهم من أجل لقمة عيش مسروقة منهم بفعل عمالة القادة والساسة في بلادهم ،كان يتحمل الذل من اجل لقمه العيش، وقد كان أبي يبيع العطور والبخور وأدوات التجميل ، لم يكن محمود الشيخ يثق إلا بأبي بعد أن غدر به البائع الهندي الذي كان قبل أبي وسرقه كثيرا ، أما أبي فقد كان شيء مختلف يشبه الماء النقي كما كان يقول عنه محمود الشيخ في بدايات عملهما معا .. شخص نادر في زمن اللصوص .

بفضل أبي وأمانته توسعت تجارة محمود الشيخ وأصبح لديه فرع في الرياض وفرع في الدمام و أخر في الخبر .. لم يعد يكتفي بالتجارة من تصدير واستيراد ، لكنه كان قد بدأ في صناعة عطور باسمه كان ابي هو من يقوم بتركيبها وببركة وجود أبي معه لقيت نجاح وشهرة في كل المملكة ، وتطورت حتي صارت تنتج في مصنع خاص بمحمود الشيخ ، ويبدو أن الناس كانت تعرف أن أبي هو من يصنع تلك العطور فقد كانت النساء وخاصة الأميرات يطلقن على تلك العطور " عطور اليماني " ، وربما أن هذا ما كان يتسبب في غيرة محمود الشيخ من أبي ، وإن حاول إخفاء ذلك .

وقد كان الغزو العراقي للكويت هو الحل والفرصة أمام محمود الشيخ ، فقد قرر بعد أن وصل إلى ما وصل إليه وبعد أن أصبح مصنع العطور يعمل وفق نظام محدد وضعه أبي ليستمر بدون توقف ، قرر الاستغناء عن أبي بعد عشرين عاما من الإخلاص والأمانة ،لم يهتم بتوسلات أبي وأكتفى بقول جملته الأخيرة :

- ما عاد لك عندي يوم ثاني يا اليماني ..

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها محمود الشيخ يستخدم كلمة "اليماني " ، فأدركت أن الزمن أنتهى عند هذا الحد مع رجل لا يعرف الوفاء ولا يعترف بالجميل .. وأن العودة الى المجهول في اليمن هي الغد الداكن الذي تحاشيناه عشرين عاما وكان لابد أن يأتي .

حينها سألت نفسي لماذا لم اسأل أبي حتى مرة واحدة عن سبب تركنا لليمن ومجيئنا إلى أرض لا تحبنا ولا تحترمنا ، لماذا لم اسأل ابي ما هو القهر ، وما هي المعاناة التي جعلتنا نغادر بلدنا ونصبح هكذا مغتربين في أرض لا أمان لنا معها ، عشنا فيها نتجرع الذل لأننا "يمانيون عزك الله " .. تلك الجملة التي لم أكن أفهم معناها ولا سبب ترديدها على مسامعنا خاصة وقت الغضب ، لماذا ؟ ونحن نحبهم ونعمل معهم بوفاء وإخلاص ..

تلك الجملة التي كانت دليلا على تقليلهم من شأننا هكذا بدون ذنب جعلت بيني وبينهم حاجز من الالم ، فما أحببتهم ابدا ..

- ليش يابه يكرهونا هنا بهذا الشكل .

دحرجت كلماتي تلك صوب أبي ذات غفلة أستيقظ منها على وقع الكلمات تخربش في ذاكرته المرهقة ..

شردَ متأملا في الماضي البعيد عندما وصلنا جدة ونحن صغار ، جاء حاجاً هو وأمي ونحن معهم ولم نعد .. كان الحج هو الحجة والهروب هو الغاية ، الهروب من الفقر والظلم والجهل ، رأيت ما يشبه الدموع تنزل من عينيي أبي وأخرج تنهيدة كبيرة مزقت قلبي وقال بصوت واهن :

- مش داري ليش يا ابني ، والأكثر من هذا يحتقرونا ويعاملونا كأننا حشرات .الله لا سامح الخبرة باليمن قللوا من قيمتنا والا كانت بلادنا تعزنا .

وكذلك لم اساله عن سبب قدومنا للسعودية . كنت أدرك أن هناك أسباب اخرى غير البحث عن لقمة العيش ، هناك أسباب تتعلق بالسياسة ، والسجن الذي تحمله أبي سنة كاملة عندما كان في الجبهة الوطنية،

كانت هناك أسباب تتعلق باختفاء أخي الكبير عندما خرج ذات صباح لم نعرف فيه الشمس وغاب خلف غيوم ذاك اليوم ولم يعد حتى هذه اللحظة ، وترك زوجته الصغيرة تعد له قهوة الصباح في صباح كل يوم على مدار ثلاثون عاما دون أن يأتي ليشربها ولو مرة واحدة .

كان اختفاء أخي القسري مبرر لحياة شاقة ومؤلمة تذوقتها زوجته وأولاده الثلاثة ، حياة مليئة بالفقر والمعاناة والانتظار القاتل لغائب لن يعود ، وحدها بقت في اليمن ولم تتبعنا للسعودية .. هكذا فقط لأنها لا تريد أن يصل زوجها ذات يوم وهمي – في توقعاتها فقط - ولا يجدها .

كنت أشعر أن قدر ما يطرد اليمنيين من اليمن ويلقي بهم في السعودية ، وكثيرا ما كنت أتعثر وأنا بطريقي للمدرسة بأطفال يمنيين يتسولون بالشوارع كلهم بدون استثناء مهربين للسعودية تهريب .. وكانت تلك هي القضية التي تحيرني ولجهلي لم أكن أستوعب أسبابها ومبرراتها ولازلت أذكر يوما حديثا دار بين أبي وصديق له حول هؤلاء الأطفال أدخلني في دوامة الألم والخوف من القادم والمستقبل .. سمعتهم يتحدثون انه يتم تهريب الأطفال للسعودية بحجة العمل ثم يتم استغلالهم والاتجار بأعضائهم وحتى استخدامهم في الممارسات المحرمة .. الجريمة القذرة يتحملها الطرفان والضحية أطفال اليمن ومستقبلهم .

وكانت العودة ..

وها نحن ثانية في أرض اليمن وحتما لم يحدث شيء مما كان يخيف ابي بدليل أنه لم يحتجز كما كان يتوقع ، وحدة الفقر احتجزنا في زاوية ضيقة جدا حتى تبعثر كلا منا في مكان بعيد ..

أبي ؟ ترى أين أنت ؟ هل تنام داخل كيس أيضا أنت الأخر ؟ لا يهم فالحياة حتما تعرف كيف تعتني بك أفضل مني . وريقات الأشجار وإن تساقطت وعرت فروعها لحين من الوقت فأنها تعاود الظهور بلون أكثر اخضرارا ورونقا دونما شك . هكذا كان يحلو لي أن أبرر عقوقي نحو أبي الذي لم أعد أعرف أين هو منذ تلك اللحظة التي أعترف لي فيها أنه لم يعد قادرا على تكاليف مدرستي أنا وإخوتي الأربعة . وجه أبي علقت ملامحه في ذاكرتي ، للأسف ملامحه الأخيرة التي تبدلت منذ وصولنا اليمن وعصرها كل ذاك الفقر وكل تلك المعاناة بدت لي فوق

مستوى التحمل ، فحتى قوت يومنا ما عاد بمقدورنا توفيره يوميا فأصبح للحياة مذاق أخر بمرارة العلقم .

وحدث ذات مرة بأن أبي تزوج امرأة جديدة ، حقيقة لم أفهم لماذا في هذه بالذات توفر له المال . يبدو أن المال في بلادي لا يستعصي على أمرين .. القات والجنس . لعنة الله على هكذا مال !.

وقد توفت أمي بعدها بعام ، لم تحتمل العيش برفقة أبي بعد أن أصبح خائن .. هكذا كانت تصفه ، لم تصدق مرة واحدة أن هذا شرع الله ،

كانت تكرر على مسامعي بشكل شبه يومي بصوت ضعيف أعجزه الالم والوجع :

- الله يا أبني لا يحب أذية الناس ، الخمر وقدوه الخمراللي فيبه منافع حرمه ربي لأنه فيبه أذيه للناس.

وفي كل مرة كنت اعجز في اقناعها بتقبل الواقع والرضا بما كتب الله محاولا تبرير ما حدث بأنه شرع الله ، ذاك الشرع الذي لم أستطع أنا فهمه حتى مرة واحدة .

كنت في كل مرة ارد عليها كاذبا :

- مله ذاك الخمر يا أمه ، أيش دخل الزواج الثاني تشتي تحرميه وهو حلال .

وكانت لا تنسي في كل مرة يدور بيننا ذات الجدال أن ترمي بشرر نظراتها نحوي وتمط شفتاها عجبا واستنكارا لردي .

كانت عيناها تصرخان في وجهي – حرم الله الخمر لأن فيه أذى للعقل ، ولذا لم يحلل الزواج الثاني لأن فيه أذى للنفس - كل ما يؤذي الإنسان حرمه الله فهو الرحمن الرحيم .

كانت أمي ترى أن زواج أبي بثانية لا يعني شيء سوى أنها لم تعد تعني له شيء ، ولذا لم تعد تجد مبررا لبقائها معه ، وطالما حدثتني طيلة عامها الأخير معه عن رغبتها بالموت فهي لا تملك المال لتنفصل عن أبي وتتكفل بنفسها ولا شهادة لديها تمكنها من العمل وإعالة نفسها بنفسها .. لم تجد أمامها سوى طريق الموت فاختارت الموت وهو استجاب لها ولم يتأخر .. دائما كان الله في صف أمي ، لم يتخلى عنها ، حتى عندما قهرها أبي وتزوج ، أعطاها الله حق الدعاء فدعت بموتها واستجاب الله لها سريعا .

ورحلت والدتي من عالمي ليكون موتها هو عكازي الذي انكسر من منتصفه ، وما عاد صالحا لاستند عليه لمسيرتي القادمة وحيدا في الحياة .

ولم يحدث أن التقيت أبي بعدها مطلقا ..

- 2 -

لازلت اكرر في نفسي حتما أن تعليمي المحدود سابقا جعل مني قادرا على تسجيل تلك الكلمات التي كانت تصلني من هزاع عبر نافذة المرور تلك ، كلمات سياسية بها الكثير من الفلسفة ، بالتأكيد يفترض أنها لا تعني شيئا لمن هم كحالتي ، لكني دائما مختلف ، فالشمس تشرق في سمائي مرتين . أي والله صدقوني كانت تشرق في سماء عالمي ذاك مرتين .

كنت أسجل كلمات هزاع التي كثيرا ما صححها لي بقوله أنها مصطلحات ، وليست كلمات ، لم أكن أدرك ما الفرق فلم يكن يستفزني تصحيحه المتكرر أبدا وكنت أسجلها فوق جداري وكأن العمارة ملكا لي . الغريبة أن العم صالح لم يكن يغضب وكان يكتفي بعدًها الواحدة تلو الأخرى في كل مرة ، ثم يكرر السؤال ذاته :

- متى ستعرف معناها و ترحمنا وترحم جدار العمارة منها ؟.

جاء هزاع من تعز ليدرس بجامعة صنعاء ، والده توفي وهو في بطن أمه عرف اليتم قبل ان يعرف الحياة ، كان الرقم الخامس والأخير بين أخوته ،لم يرث من والده إلا الفقر ومكتبة مليئة بكتب قيمة ومتنوعة ، تجرعها منذ صغره فكان مختلف عن كل أترابه ، تربى من عمل والدته في صناعة البخور وبيعه للنساء بأسعار مختلفة حسب مستوى ثراء المشترية بالرغم أن البخور هو ذاته .. " لا باس نحن نسترد جزء من أموالنا المسروقة عند الأغنياء " ..هكذا كانت والدة هزاع تبرر لأبنائها تصرفها ذاك .

كانت كلمات هزاع تتسرب بانسياب من بين صفحات كتبه مباشرة الى جداري اسفل عمارة العم صالح .

المساواة

الحرية

النظام والقانون

الكرامة

العدالة

المواطنة

العيش الكريم

.

.

.

.

الحقوق والحريات

الدستور

الدولة المدنية

.

سرب من كلمات كان لغموضها وقع السحر على مسمعي . هكذا كنت أشعر أن لتلك الكلمات علاقة بي وبكيسي البائس وصفير حشرات الليل رفيقتي الدائمة ، وباحتلالها أسطح كيس نومي ذاك . كيف ؟ لماذا ؟ لست أدري أو أنني لم أكلف نفسي عناء التفكير ، فلست مضطرا لهكذا عناء . أو لم يكن يكفي ذلك ؟ خاصة لرجل مثلي ، يحمل الهم مثلما تحمل فضاءات سماء بلادي أسراب حمام لا يعرف أين يحط ، ولا متى تنتهي رحلته المنهكة بحثا عن لقمة العيش .

صفحة بيضاء ، بحاجة لقلم بألوان قوس قزح ، كل لون يضرب عمقاً في سماء جديدة تجعل لشروق الشمس وقعا خاص لا يشبهه أي شروق أخر . ما أجملك أيها الأمل ! هزاع صوته محبب ربما لأنه يأتيني كل يوم بكلمة جديدة لا أدري لماذا كنت أحسها سحابة تحلق بي في عالم بلون البنفسج سحرا وغموضا .. حتى أنني كنت أشك كثيرا أنني ربما في حياة سابقة كنت فيلسوفا مثلا ، أو كنت ثوري مثقف ،

نعم كثير ما ظننت ذلك فقد راقت لي فكرة تعدد الحياة لأنني قد أولد ذات حياة رجلا ثريا لايعرف الجوع ولا المرض .

كانت تعجبني ضحكات هزاع عندما يراني أسجل كلماته فوق جداري بخط ركيك مليء بأخطاء إملائية طالما صححها لي في وقت كنت مقتنعا أن لا فرق طالما المعنى هو ذاته لم يتغير فماذا يختلف ترتيب الحروف تقديما وتأخيرا ، أو حذف بعضها. هكذا هم المتعلمون لابد أن يجعلون لهم مساحات خاصة بهم لا يقترب منها أحد ولا أحدا يشبههم فيها ، ربما فقط ليغمرهم إحساس

يغفرون به لكل تلك الأيام التي كانوا يلتحقون فيها بمقاعد الدراسة التي لا أذكر أني وجدت شخصا واحدا أحبها .

نعم .. كان هزاع يضحك وتصلني قهقهته سريعة وقريبة من نافذته فوق مكاني مباشرة .

صوته يتسلل عبر النافذة حنون ومحب وهادئ كما نفسه الطيبة :

- أيش تسوي يا مجنون ؟ أيش فهمك أنت بذي الكلمات.ومو شتفعل به.

كنت أنظر إليه بابتسامة ذات عتب ومغزى في نفسي فقط ، ابتسامة ذات ثقة لا أدري من أين كانت تأتيني .

أيه ياهزاع ،

يوما ما سأفعل بها شيء بالتأكيد. لا يمكن أن تمر بالنسبة لي مرور الكرام . أو قل أني بكتابتها أقنع نفسي أن سنواتي الست داخل مدارس جدة بالسعودية أيام الاغتراب لم تكن هباء منثورا. على الأقل ها أنا أكتب كلمات وإن كنت لا أفهمها . بغض النظر عن اتهام هزاع لها بأنها مليئة بالأخطاء الإملائية ..لا يهم ..

- يا أحمد لا تكون تشخبط فوق الجدار . هذا تخلف وجهل وعدم إحساس بالمسئولية . شوهت العمارة الله يسامحك .

لم يهزني صوت هزاع المنتقد حتى مرة واحدة .فهكذا أنا لا أعرف قيد ولا باب .

من كل تلك الكلمات كانت تستهويني كلمة على وجه الخصوص – الحرية – ربما لأنها الوحيدة التي كنت بخجل مخفي أشعر أني أفهمها وأنها تذكرني بكيس نومي ، ولست أدري لماذا. لكنني كنت كلما سمعته يرددها أتذكر كيس نومي الذي يقيدني بحدود مقاسه التي لا تزيد عن مساحة لشخصين ملتصقين ببعضهما تماما . يا لله كم أحتاج للنوم بحرية ، فما بالك بالعيش بحرية !. كنت واثقا أن هزاع قصد بالحرية النوم داخل غرف واسعة – هذا إن لم أكن مخطئاً كالعادة - .من وجهة نظر هزاع طبعا ، اما أنا فلم أشك يوما بأني لي علاقة بالأخطاء التي يتهمني بها هزاع ..

المساواة.. هذه الكلمة أو- المصطلح - كما كان يحلو لهزاع أن يسميها ، هي أيضا كانت تعجبني لكنها تذكرني بعمارة العم صالح هذه المرة . ترى ماذا يساوي كيس نومي أمام عمارة العم صالح ذات الطوابق الثلاث . وإن أردتم الصدق فهذه الكلمة بالذات كانت وجعي الدائم لأن بغيابها فقط لم أتمكن من لقاء سعاد ابنة العم صالح أبداً لا لشيء إلا لأنني أحمد مهيوب المتشرد وهي ابنة العم صالح مالك العمارة ، لهذا كان لابد أن أسجل كلمة المساواة فوق السطر الأول من صفحة جداري .جدار عمارة العم صالح ، دون أن يدري هزاع لماذا وضعتها هي بالذات على رأس قائمة كلماته ، ومازال حتى هذه اللحظة لم يجد الإجابة لسؤاله عن سبب ذلك.

- 3 -

الدور الثاني من عمارة العم صالح كان يقطنها صلاح عبد الله ، ذاك الرجل الصامت ، المحمل بأفكار كانت تخيفني ، كنت أشتم فيها روائح قديمة تقيدني حيث أقف فلا أستطيع المضيء قدما إلا بصعوبة بالغة ، بين أغنية وأخرى كنت أطلقها من حنجرتي المتصلبة من صعاب الحياة ، كان يفتح نافذته على مصراعيها ليخرج رأسه منها ويصوب صوته نحوي مباشرة أسفل العمارة – حاداً - مبعثرا في المسافة بيني وبينه :

- أخرس الله صوت الشيطان . أسكت يا أحمد . هربَّت الملائكة من حارتنا ، الله يشلك.

كنت ألقي عليه نظراتي محملة بأطنان من اللعنات في كل مرة ، وسيل من الاستفسارات " من أين أتيت بحق السماء ؟ وفي أي زمان تعيش ؟ وهل حقاً أنت موظف بوزارة التربية ؟ وأي جيل يمكن أن تهديه للوطن يا رجل ؟ " .

كان شيء يشبه الصمت الحذر يتربص على حافة أيام صلاح.

كلمات هزاع المدونة فوق جداري ، كانت تزيد الهوة بيني وبين صلاح فهي مسرح الشيطان حسب رأيه ، وكانت كافية لنكون على خلاف دائم .."هذه كلمات النصارى يا رجل .ما الذي جعلك تدونها فوق جدار العمارة ؟ "

كان صلاح يردد جملته تلك كلما صادف دخوله أو خروجه من العمارة وجودي على رصيفي ذاك ،

وكانت جملته تلك في كل مرة يقولها تحيرني ..

نصارى ؟ ماذا يعني ذلك ؟ كانت تربكني كلمته تلك ، وتاخذني الحيرة هل هزاع الأسمر النحيل التعزي الأصيل نصراني ؟ لكنه ملتحي تماما مثل صلاح مع اختلاف الشكل ؟ أو ليس كل ملتحي مسلم متدين وملتزم أيضاً ؟ ما هذه الفوضى الفكرية من حولي ، فأنا ما أن أكاد أفهم شيء حتى أتوا لي بغيره.لا سامح الله المثقفين (جننونا).

سألت يوما هزاع عن نصرانيته ، ومصدر كلماته تلك ، ضحك وقال لي جمله لم أنساها أبداً :
- أنسى يا صاحبي وعش حياتك. صلاح هذا لا يمكن أن يتفق مع أحد . أنا حتى لا أتحدث معه أبداً ولا أتعامل معه مطلقاً.

وعشت حياتي،

وظل صلاح سؤال عالقاً في فكري.

لم يروق لي أبداً فضوله في كل تفاصيل حياتي ، ولم أتمكن من نسيان مذياعي القديم الذي كنت أستمع منه إلى تمثيليات يمنية تبدد ساعات وحدتي على رصيف الشارع ، من قال أن التمثيليات محرمة ؟

كان صلاح نحيل يرتدي دوما أما ثوب قصير ، أو بنطلون وقميص يقفله من الزر الاول حتى الاخير ، لم يكن منظره مريح أبدا .. يقضي وقته بين المدرسة حيث يعمل والجامع حيث يصلي أكثر من كل الناس ، لا يتوقف عن انتقاد الاخرين بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. يتحاشاه الجميع لعصبيته وعقده الناجمة عن صعوبة الحياة التي عاشها .. فقد عانى من ويلات ثلاثة حروب من حروب صعده الستة ، فقد فيها اخيه ووالدته وزوجته العروس ،الحرب دائما تجعل منا بقايا بشر ..هكذا كان يردد على مسمعي هزاع كلما تحدثنا عن صلاح،

وعبثا كانت محاولات هزاع أن يشرح لي أسباب حروب صعده[7] الستة ، لماذا كانت تبدأ وكيف كانت تتوقف لتبدأ من جديد قبل أن يسترد سكان صعده أنفاسهم بدون اسباب واضحة ،

كل ما تمكنت من فهمه أن تلك الحروب اللعينة مزقت صعده وتركت نسائها ارامل وثكالى وبكل قسوة يتمت أطفالها ، وحولت شبابها أما الى معاقين أو ناقمين على زمن لم ينصفهم .

فر صلاح الى السعودية وقضى فيها ما يقارب العام ، عاد بعدها إلى صنعاء هذا الانسان الذي لا يطاق !

إنسان مليء بحزمة من ويلات الحروب وإشكالات الغربة التي لم تشفيه وإنما جعلت منه شخصا كارها للحياة وجمالها ،

و شاءت الاقدار ان يسكن صلاح الدور الثاني من عمارة العم صالح لتتقارب أقدارنا ونلتقي في أكثر من فصل من فصول الحياة المتعبة ، وكنت أنا الاشد تضررا منه لاني كما كان يصفني الشيطان المتشرد الذي لا يكف عن الجنون .

وفي ذات يوم عاد صلاح من دوامه اليومي في المدرسة مطأطأ رأسه بثقل هموم لم أتمكن من معرفة مصدرها ، يقف أمامي مباشرة ، تأملت لحيته غير المهذبة حمراء اللون و قارنتها بلحية هزاع التي تزيده وقارا ورصانة ، هناك فرق حتما فالله جميل يحب الجمال !! أخفضت

[7] صعده : منطقة في شمال الشمال من اليمن على حدود السعودية

صوت المذياع قليلا وقلت له متململا من فضوله المتكرر دون أن أرفع نظري صوبه لعله يختصر:

- خير يا صلاح ؟ أيش فيه ؟
- مكانك بكفرك يارجال ؟ خاف الله وأتقيه في نفسك؟
- وأنا مو فعلتو؟ أتسمع تمثيلية
- أذنك يوم القيامة شتتحاكا نيابة عنك و شتدخلك النار لا ذمة هذا الراديو حقك .

تكسرت تهديداته أمام صورة الله عندي فهو أرحم الراحمين ، لا يحرق من أجل تمثيلية بالتأكيد ! وإلا فماذا سيفعل بكل من يغير معاني الإسلام فقط لإخافة الناس وتضييق الحياة عليهم ؟ ماذا سيفعل مع من يحلل دم المسلمين ويكفر الناس ويسهل قتلهم ، ماذا سيفعل بتجار الحروب ومروجيها ، مازلت أتذكر بعض سطور علقت في ذاكرتي من سنواتي القليلة في المدرسة " الدين يسر وليس عسر " فلماذا تعكرها بحق السماء يا صلاح ، دعنا نحيا كما فطرنا الله يا أخي

ضحكتُ ساخراً من صلاح الذي لم يتردد لحظة فأسرع بخطف الراديو مني وألقاه أرضاً بعنف لا مبرر له حتى حوله أمامي عشرات القطع المتناثرة على طول رصيفي المقصي من كل معطيات الحياة ، وألقى في حجري بعصبية مفتعله كتاب القرآن الكريم للصف الثامن وقال بصوت يخترق حواف إيماني :

- أقرأ كلام الله . الله يشلك.

قبلتُ كتاب القرآن الخاص بالصف الثامن ووضعته فوق رف دولابي – عفوا- أقصد فوق حواف رصيفي وأخرجت من تحت خرقي البالية المكومة تحت كيس نومي - أخرجت - مصحف كامل وقرأت منه ما يكفيني لتبريد نار غضبي وشدة حزني على مذياعي العزيز . من قال أن كلام الله وكلام البشر لا يلتقيان !

وأسرعت ألحق صوتي صامتا بخطوات صلاح المبتعدة عني ..ساااااااااااامحك الله وا صلاح.

- 4 -

الدور الثالث من عمارة العم صالح كان الأجمل ..

في إحدى المرات كاد أن ينتهي نهاري وأنا لا أزال غارقا في تفاصيل سعاد ابنة العم صالح ، ابنة السبعة عشر ربيعا ، أظل داخل كيسي ألوك بقايا حلمي بعينيي .

أيتها الجميلة أنتِ ما تبقى من أيامي العتيقة ، من هزائمي البكر وانتصاراتي المؤجلة ، أيا لذة الحلم لا تتماهي ولا تتوقفي ، في لحظات الذهول الطويلة أشعر بالاختناق من زمن قاسي ، وأظل وحيدا دونك ، إلا من وطن يشبه كل الأوطان .. وطن مؤجل إلى زمن نعرف كيف لا نترك الآخرين يسرقون دروبنا فيه .. وطن كان يسكننا ألف عام وأخرجناه من ثنايانا عنوة لنستبدل به وطن موجوع فضاع منا وطننا الموعود في زحمة الوجوه وضيق الصدور و خداع النوايا في كل تلك الساحات الصاخبة من ساحات التغيير في هذا العام الاستثنائي في حياة اليمن.

سعاد .. أبنه العم صالح صاحب العمارة ، رأيتها تكبر وتنضج أمامي يوما بعد يوم .. جميلة ، وناعمة إلا من شراسة صدها لمزعجي الحارة . لا حد لحلمي المحرم بها .. كنت العن حرب الخليج التي أعادتنا إلي اليمن مشردين ، ربما لو بقينا هناك كنت اكملت دراستي وعدت بثياب تعجبها ووجه لم تلفحه حرارة شمس الأرصفة ولا قسوة الجوع ، ربما كانت تباهت بي امام صديقاتها لاني مغترب ثري بالسعودية .. سامحك الله يا صدام صدمت حياة كل مغترب يمني وحولتها الى جحيم .

تزوجت سعاد من رجل قدم من الخليج لا يعرف والدها عنه شيء سوى انه ثري ويريد الزواج بابنته الجميلة والصغيرة ،

اليوم لا شيء يستحق كل ذاك الألم ، سعاد ذاتها لم تعد تريد ان تتذكر ما حدث لها من جريمة بذنب جمالها ليس إلا.

بعد شهور أربعة استفاقت سعاد في شقتها التي استأجرها لها ذاك الرجل الغريب ولم تجد شيء لا زوجها ولا الذهب الذي أغرى والدها به ، شيء مؤلم وأحمق هو كل ما حدث ، شيء يشبه الشهوة المجنونة المفتوحة على مصراعي ثرائه المزعوم .. لا سامح الله الطمع يا عم صالح ،

الغريب جاء خائنا منذ النية الأولى والأب يتعبه ثقل حمل هم أبنته وسترها .. فهل سترها ؟؟

خلفت التجربة القاسية سعاد امرأة مطلقة ، ومشروع أم لم يكتمل لرحمة الله بها ..ولا تزال خطواتها في الحياة متعثرة لتربص أفكار صلاح القاتمة بها ولضعف شخصية والدها .

هروبا من فراغ موهوم قد يلقي بالفتيات في ظلام الخطيئة .. او ربما البحث عن زوج ثري هو ما دفع العم صالح وغيره من تزويج بناتهم للغرباء المتنكرين بثياب الثراء .. ما حدث لسعاد لا تركها متزوجة ولا أبقاها طالبة في مدرستها .. فأصبحت سعاد صورة رمادية لقسوة أب وجهله منسية على رصيف الحياة تتألم من تجربة بيع مع سبق الإصرار والترصد.

رأتني ذات يوم فاطمة أخت سعاد وأنا أتجاذب معها أطراف حديث ملفق فأسرعت تصرخ بأعلى صوتها على سعاد أن تتوقف عن الحديث مع متشرد الحارة. فاجأتني ذاك الصباح بأني متشرد! أحقا أنا متشرد ؟.. ولماذا أنا متشرد؟ أنا مثلها تماما تمنيت أن يكون لي مسكنا . لكن كيف ؟ نويت أن اسأل هزاع لكني تراجعت وقررت أن أنسى وأعش حياتي كما كان ينصحني هزاع دائما عندما تخذله أفكاره ولا تسعفه برد يقنعني . إلا سعاد ما كان بمقدوري أن أتناساها .

فاطمة لم تكمل دراستها لأن صلاح تمكن من إقناع والدها بأن الجامعة فتنة والاختلاط مفسدة ، و محرقة النساء ، فبقت فاطمة داخل دارها تراقب كل يوم خطوط وجهها وتغير سواد شعرها تنتظر القادم الذي تأخر وهي في انتظاره دون جدوى .. تتأمل صباحات المدينة تغرق شيئا فشيئا في يأسها وانتظارها الذي قد لا ينتهي . صلاح أسدل الظلام على حياتها عندما كانت الشوارع تضج بوهج الشمس وضوئها .

كانت فاطمة أخر من يطفئ مصباح غرفتها ليلا ،

صوتها الصامت كان يبدد ظلام المدينة ويحوله الى سحابة كبيرة محملة بهموم فاطمة وكل من تحمل قصة شبيهه وما اكثرهن في اليمن ..

" لقد كانت الحياة بالنسبة لي جزء لا يتجزء من قيم صلاح الحمقاء وجهل أبي المربك ، شاء لي القدر أن لا أتزوج وأن تخلو حياتي من تفاصيل الآخرين .. وكنت أخاف أن اخون أحب الناس لي (أبي) أن أنا صممت على استكمال دراستي وحقي بالحياة ، تراني كنت سأخون احترامي و طاعتي لأبي أن أنا فعلت ؟ لكن رتابة الحياة تكاد تقتلني .. وحتما ستاتي الخيانة يوما ما ".

فاطمة أسدلت ستائر العتمة على ربيع عمرها بتعاليم دينية من صلاح وتنفيذ أحمق من والدها .

ستغمرني سعادة غامرة إن سعاد تحررت من احتمالات تأثير صلاح على والدها ..الظلال العتيقة ألقت بخيوطها فوق وجه فاطمة فتهدلت أفراحها غضب دائم وتوعد لشيء لا وجود له ، عصبية دائما ، لم يسلم أحد في الحارة من سلاطة لسانها وقسوة معاملتها ، تعكس سخطها على

قدرها في كل ما تقوم به حتى بات الجميع يتحاشاها ويغيرون مسار طريقهم أن صادفوها بالطريق .

لا يجب أن تلقي سعاد القدر ذاته ولا يجوز لصلاح أن يسدل ستائر الظلام الواحدة تلو الأخرى على حياة فتيات الحارة لتبقى حارتنا حارة التعساء والمهمومين باسم الدين.

هذا هو الدين والدين أفيون الشعوب يا صاحبي!

- للمه بتحاكي سعاد وهي غريبة عنك مش أنت داري انه حرام .

قالها لي صلاح في ذات مرة رآني أتجاذب الحديث مع سعاد التي كانت ترق علي بكسرات خبز وبعض من الطعام . كان علي فقط أن أتحايل على صلاح بجوعي وفقري حتى لا أحرم من عطف سعاد ، وحتى أوجل جنون صلاح من يوم لأخر .

- أنت داري أنه حرام يدك تعس يدها حين تشل منها الأوكال ، كن خلها تطرحه لك بالقاع وأرجع شله بنفسك . أيحين عد تفهموا دينكم لعنة الله عليكم ؟

تباً ..

ما الذي جعله يتوقع أن يدي تلمس يدها حين أتناول منها الطعام . ليت ذلك حدث حتى مرة واحدة لكنه لقلة حظي لم يحدث أبدا ، وحدها مخيلتي كانت غنية بالأحداث المشتركة مع سعاد والتي لم تحدث بيننا أبدا ، حتى كيس نومي شاركني بها في أحلام يقظتي الدائمة أجمل اللحظات وأحبها إلى قلبي المنهك .

وكنت دائما اتسأل في نفسي ترى هل أعني لسعاد شيء أنا متشرد الحارة ؟ أم أنها كانت تعطف عليَّ وتجود عليَّ بما كتب الله رحمة منها وشفقة ؟

بالتأكيد هو كذلك فمن أنا أمام ابنة صاحب العمارة ؟ ومع ذلك كان تعاملها اللطيف يسعدني ويجعل لحياتي مذاق مختلف تماما عن نكهة مسح زجاجات السيارات بخرقتي البالية القذرة وربما أن تذمري من ثورة الشباب كان بسبب أنها بعدتني عن سعاد التي غادرت اليمن لم أدري الى أين الا بعد سفرها ، حيث سافرت لعدة شهور حسبتها سنوات .. بالتأكيد هذا سبب هام . أما أنا فأنا رجل ثوري تعلمت كلمات هامة من هزاع جعلتني مختلف عن الآخرين ، وجعلت الشمس تشرق في سماء عالمي مرتين . أنا جار لرجل مثقف وثائر فلابد أنني سأكون مثله ، أو على الأقل هكذا تمنيت .

معالي الوزير

-1-

كان أحمد مهيوب ينزلق كل يوم وسط خبايا عمارة العم صالح ورواد شارعه الدائمين ، كأن الزمن توقف عند تلك الحدود وتعاريجها . يشتم روائح العابرين على الشارع ويتذكر فقط من لامست أقدارهم قدره .

يتأمل دائما ذاك السور العالي للمنزل الجميل ذو الجدران المغطاة بأشجار (الجهنمية)[8]الحمراء والبيضاء والصفراء في امتزاج وتداخل بديع .. يحدق في بابه عسى وأن تخرج الدكتورة أمل تلك الأستاذة الجامعية التي كان يراها في تلفاز البوفية أكثر مما يراها في الحياة وهي جارته .. كان مبهورا بها وبأعمالها الخيرية التي كرست حياتها لها حتى نست أن لها حق بالزواج والأمومة .

وفي كل مرة لم يكن يسمع إلا محرك السيارة يتناهى إلى مسمعه من خلف أسوار منزل الدكتورة أمل قبل أن تفتح أبوابها وتغرق السيارة في فراغ الإسفلت دون توقف وبالكاد يلمحها وهي تؤشر له بكفها مبتسمة .. فيغمره أحساسا غامضا أشبه برائحة بحر جدة فيه الانتعاش والذهول ..يغمض عينيه ويتمتم – الله يحفظك ويرزقك بابن الحلال -

هكذا الدكتورة أمل ، أمل كل المهزومين في هذه الحياة ، لا تلفحها رياح اليأس ولا تبعثرها زوابع الحياة ، تخبئ أحلام البؤساء وهمومهم في ذاكرتها وتسير في الدروب وحدها من أجل مسح دمعة يتيم وسد رمق فقير ، كانت تضمر حبا لكل البؤساء في مدينتها التي كثيرا ما أرهقتها ببخل اثريائها وتجاهل ساستها من كل ما يدور من مظالم وإقصاء .

وفي صباح مختلف كان أحمد مهيوب يغسل زجاج أحدى السيارات أمام أحد المطاعم الفاخرة في منطقة حدة الذي يقصده متعمدا لأنه المكان المفضل لكبار المسئولين وأغنياء صنعاء فيحصل على ألف ريال كاملة على غسيل السيارة الواحدة و بخرقته البالية القذرة ذاتها بدلا من

[8] الجهنمية : نوع من الشجر المتسلق له زهور متعددة الالوان

مائتين ريال يمكن أن يحصل عليها في أي شارع أخر ، وبينما هو منهمك في غسيل السيارة يدندن أغنيته المفضلة ، وكأنه يدندن بها للمرة الأولى بذات الإحساس والمشاعر ، ويغمس يده في دلو الماء بسرعة فائقة وحركه بات يتقنها حد الاحتراف ، و يرشق الماء القذر في وجه كل من يوقعه حظه البائس بالمرور من امام السيارة ، دونما توقف عن ترديد أغنيته بصوت عال عن قصد ...

أودعك وانا عليك شجنن

ياويل قلبي ياويل قلبي

كم عليك شحزن

كم صاح قلبي بعدكم وكم أن

من يستمع من يستمع ياناس شكوتي من

ياناس شكوتي من

وإذا بموكب من سيارتين فارهتين يلحقهما طقم من الحراسة المسلحة ، يقترب من رصيف المطعم وتتوقف السيارة تلو الأخرى .

لم يكن الأمر صعبا عليه ليدرك أنه موكب لأحد الوزراء أو أي مسئول من مسئولي الدولة وربما لأكثر من واحد منهم .. أمر يتكرر دائما بذاك الإشهار الكاذب لصاحبه .

- يا لله خراجك ..

رددها أحمد مهيوب بعد أن أستوقفه المشهد وفكره مثقلا بتكهن من سيخرج من تلك السيارات ، حاول أن لا يعير الأمر أهمية ، مسح وجهه بكم قميصه من رذاذ ماء دلوه القذر وأتخذ قراره أن يتوقف عن مسح زجاج السيارة ويحترف التسول فهذه فرصة لا تفوت وصاحب السيارة التي يغسلها لا يزال امامه وقت كافيا قبل خروجه من المطعم . تقدم من السيارات ورأى الوزير يخرج من أحدها بعد أن هرع أربعة حراس مسلحون لفتح باب سيارته بسرعة وقلق حتى توقع مهيوب أن يخرج منها شخص معاق لايعرف كيف يفتح الباب أو سجين يخشون هروبه !! ذكره المشهد ببقايا عالقة في ذاكرته من فلم هندي لم يعد يذكر اسمه ولا احداثه .

و لشدة فرحته خرجت من السيارة الثانية الدكتورة أمل ، فتحت باب سيارتها وترجلت منها بهدوء ، لمحته حيث يقف فابتسمت له كعادتها كلما راءته ، تقدمت منه وقالت بطيبة عهدها منها:

- أحمد أيش تسوي هنا ؟

رد وهو يتفحص الوزير الذي كان يقترب منهما من رأسه حتى أخمص قدميه :

- أيش أسوي ؟ أنا ؟ أشقي بعد لقمتي

أنتابه فضول عجيب ، من هذا الشخص الهام الذي جاءت معه الدكتورة أمل ؟ ثم قرب رأسه من اذنها وهمس :

- منو ذا ؟

ابتسمت أمل ونظرت صوب الرجل وقالت مخاطبته :

- معالي الدكتور هذا أحمد مهيوب أطيب مخلوقات الله ، وبركة حارتنا .

بركة حارتنا ! .. يا لله لست أذن متشرد الحارة . أين أنت يا فاطمة ؟ أين أنتم يا متكبري الحارة ؟ تعالوا أسمعوا ماذا تقول عني الدكتورة أمل .

حدق أحمد في وجه الدكتورة أمل مبتسما بكثير من السعادة ثم التفت للوزير كمن يقول له : هل سمعت ؟ هل عرفت من أنا ؟

كان ذاك الوزيرالذي ترافقه أمل حلو الملامح تبدو تفاصيل الطيبة في نظرته ممزوجة بجدية المسئولين المزعجة ، أناقته ملفته للنظر ، دخل قلب أحمد لكل تلك الصفات أو ربما لأنه رآه بصحبة أمل ..وأمل لا تعرف الا من هو مثلها إنسان .

أقترب الوزير من أحمد وبتواضع الدكتورة أمل ذاته صافحه مبتسما متجاهلا قذارة يده ، ترك عاصفة السلطة التي ارعبت أحمد مهيوب جانبا وبادله نظرة التوجس التي تخلى عنها أحمد بفضل وصف أمل له فقط ، بادله تلك النظرة بابتسامة جعلت أحمد لا ينسى ذاك الرجل ابدا .

كان أحمد لا يزال معلقا بين الفرحة والدهشة ، لا صوت إلا صوت ذاك الوزير ينتزعه من جذور الأرض التي يقف عليها ببلادة لا مبرر لها إلا فرحته بالدكتورة أمل :

- أهلا أحمد . كيف حالك ؟ تغديت ولا عادك ؟

تذكر العرافة العجوز التي تزور حارته كلما شاءت الصدفة ، والتي أخبرته انه سيقابل رجلا عظيما ذات يوم وسيلبي له كل طلباته ويجعل لحياته رنين أخر وحكايا بلون السحاب الأبيض .

- عادنا ماتغديتوش . مشو ضروري كل يوم كل يوم غدا

ضحك الوزير وكأنه يغري أحمد على استئصال خوفه من الأعماق :

- فيه حد يتغدي يوم و يوم لا يا أحمد ؟
- أيوة فيه . أنا وأصحابي يا فندم . مش ضروري الغدا . فيه حاجات ثانية أهم .
- مثل أيش يا أحمد ؟

جاء صوت الوزير فيه تشجيع لأحمد للبدء بالسرد الذي كان ..

شعر أحمد مهيوب بصدق نبوءة العرافة العجوز وصمم على القبض على فرصته تلك بقوة ،

- أولا راديو بدل حقي اللي كسره صلاح أتسمع فيبوه الأغاني
- وثانيا ؟
- وثانيا بطانية جديدة قدنا شاموت برد كلما اجيتو انام . وثانيا ..

أستمر أحمد مسترسلا ، بينما قاطعه الوزير وهو يضحك في وجهه مداعبا :

- هذه قديه وثالثا يا مهيوب . .
- طيب ثالثا . محدش يقدر يغالطك ؟ ثالثا بدلة ميري[9] مثل حق الحرس حقك ، من باب الهنجمة و الزنط . اسير أزنط بها على صلاح ..قالها مهيوب مقتربا من الوزير وأسترسل هامسا في إذن الوزير بكثير من الحذر :
- تعرف منو صلاح ؟؟

تجاهل الوزير سؤاله ملتفتا للحرس وقال بصوت آمر :

- راديو وبطانية فورا وقبل خروجي من المطعم .

المدى زاد اتساعا أمام أحمد مهيوب وشعر كأنما يفترش احلامه ويتوسد صوت العرافة العجوز . لم يدرك كم كان يحب الدكتورة أمل الا تلك اللحظة . أنها فعلا أمل كل البؤساء .

أرتفع صوته سعيدا وملحا بإصرار :

- وثالثا يافندم وثالثا ؟ البدلة الميري ؟

ضحك الرجل وربت على كتف أحمد مهيوب قائلا :

- ماينفعش . البدلة الميري لها أصول ومش من واجاء لبسها يا أحمد .

ثم التفت لاحد الحراس وقال :

- زيدوا اشتروا بنطلون وقميص من اقرب دكان ومثل البرق .

كانت الدكتورة أمل تتأمل ملامح أحمد مهيوب المندهشة بالسعادة ذاتها التي تغمرها كلما أسعدت محتاج .

- ها .. مرتاح يا أحمد .

قالها الوزير مبتسما ..

- مرتاح ؟ الا مرتاح ونص الله يبارك لك يا رب .

[9] الميري : زي عسكري

أنصرف الوزير والدكتورة أمل نحو المطعم تاركين أحمد مهيوب مصمما على ترك همه اليومي بفرصة غسل اكبر عدد من سيارات رواد المطعم فهذا يوم استثنائيا ، هو يوم للفرح لا لهم لقمة العيش .

سمفونية الفرح كانت تملأه ، لم تبرح صورة الوزير عينيه ، من قال أن المسئولين لا يعرفون الرحمة ولا يشعرون بغيرهم ؟ وماذا يمكن أن نسمي ما حدث الآن في هذه الحالة ؟.

ماذا يمكن أن نصف هذا الوزير القريب من الفقراء ،

لم تخرج الدكتورة أمل والوزير من المطعم إلا وقد كل شيء في يد أحمد مهيوب منتشيا بواقعه القادم ، يقتات بخطوات متسارعة فرحته الغامرة بكل ما في يديه .

- الحمد لله انكم خرجتوا قدنا شاطير أشتي اروح افرش البطانية واسمع الراديو بس قلتو لابد اراعي اشكرك يا فندم .

أيتها السعادة .. الوطن المنتظر ، ما عاد لغيرك متسع في عالمي ، وما عاد بمقدوري تصفح قواميس الحاجة والحزن وليذهب جنون الأستاذ صلاح إلى الجحيم فهاهو ذا مذياعي الجديد بقنواته الأكثر والأجمل في يدي ، سيكون لمساء المدينة اليوم فوق ارصفة النسيان شيء من الغبطة ، سأفتح الأغاني التي تستفز الأستاذ صلاح وأن أعترض سأقول له بزهو شديد :هذا المذياع هدية من الحكومة فهل ستكسره أيضا ؟ وحتما سيخاف مني ويصمت للأبد هذه المرة ؟

ولن أنسى أن افتتح صباحي غدا بآيات من الذكر الحكيم ثم أستمع للأغاني و انا التهم الزلابيا وارتشف الشاي في قصعة الفول الصدئة .

سطوة العسكر

- 1 -

في ذات صباح مغاير أستيقظ أحمد من نومه مفزوعا على صوت طلقات رصاص مزمجر بالكاد تمكن من فرط رعبه أن يفك رباط كيس نومه المتدلي أمام وجهه داخل الكيس . أخرج رأسه من الكيس دون أن يمط رقبته نحو السماء كعادته منذ قطن هذا الرصيف قبل سنوات كثار، خرج مسرعا نحو جهة صوت الرصاص وهو لا يزال بين النوم واليقظة . تبا ما الذي يحدث ؟ من يشاكس من في هذه المدينة البائسة ؟ هذه المدينة التي تفاجئنا بما هو غير متوقع كل يوم . ليست هذه الطلقات كالمرات السابقة كثيرة التكرار.

تسربت إلى أنفه رائحة عتيقة دائمة التجديد للبسط على الأراضي الذي صار حق مكفول لكل من له سند ولو وهمي .

تجمهر المارة ، أصوات الرصاص بدأت تذبل تدريجيا ، بعد أن تحدد مكانها تماما . الرواية ذاتها والسيناريو نفسه لا شيء تغير سوى المؤلف هذه المرة . أرضية محمد قاسم التي أنهكته دفاعا عنها حتى شاخ من فرط يأسه من الباسطين على الأراضي . لسوء حظه أن المعتدي هذه المرة هو العقيد عبد السلام ، ذاك الرجل العجوز قبيح الملامح الذي بسط بسطوته وجبروته على كثير من أراضي صنعاء الجميلة . يكفي أن تعجبه قطعة الأرض حتى تجدها بقدرة قادر أصبحت ملكا له . كيف ؟ ولماذا ؟ وبكم ؟ كلها استفسارات لا يهتم أبدا بوضع إجابات لها تبرئه أمام الناس ، فقط لأنه لا يهتم ، ولأنه كما يردد دائما - مسنود - إلى ظهر قوي في الدولة . ظهر في الدولة أسم صاحبه يترك المرء صامتا عمرا بأكمله أمام أي اعتداء أو نهب أو بسط . شيخ يعتبر نفسه مالك لليمن واليمنيين هكذا فقط لأنه من كبار مشايخها .. لعنة الله على

المستنفذين ! ردد أحمد مهيوب في نفسه هذه العبارة ، تماما مثلما يفعل في كل مرة يقوم العقيد عبد السلام بالبسط على أي أرض لأي مواطن أمام مسمع ومراء من أجهزة الدولة ورجالها .

شعر أحمد مهيوب برغبة عارمة بالهروب من هكذا قسوة زمن . من يلملم أشلاء كل تلك الحجارة المتناثرة على أرصفة الطرقات والتي أحدثها جنون الرصاص المنهمر على أرضية محمد قاسم محطمة لسورها المتواضع . شعر للحظات بأنه لم يفت الوقت بعد لبتر كل هذا الفساد . الرياح الباردة كانت تهب فوق وجهه ، قريبة من أنفه ، متعبة ، مرتجفة ، تنزلق فوق تضاريس يومه قريبه من نداءاته الداخلية التي جفت مثلما جفت أحلامه بوطن يشبه بملامحه أوطان الآخرين ، توحي إليه بأن الوقت لم يفت بعد.. وان ساعات التغيير الحتمي لابد أتيه .

سقطت أرض محمد قاسم وإلى الأبد فالمعتدي العقيد عبد السلام هذه المرة .

من ينصف صاحب الأرض من المعتدي ؟ ومن يقف في وجوه العسكر ؟ لا قانون يحمي حقوق الناس ولا دولة تكترث ؟

كان يدرك أن لكل شارع في هذا البلد العقيد عبد السلام الذي يستحقه ، فالناس لا تزال مستسلمة لذاك الخدر اللذيذ الذي يتحجج به كل الضعفاء والمستسلمين لما تحدثه الأيام .

العقيد عبد السلام ذاك الرجل الذي يسير بسيارة بدون أرقام ومعتمة النوافذ ومرافقين يحلو للجالسين في خلفها موارية بابها فقط لتظهر بنادقهم وأسلحتهم الملعونة مسلطة نحو من يخطر في باله مجرد الاقتراب ، كثير ما كان مرور سيارته بالقرب من رصيفي يترك زوبعة تثير سكينة مكاني فتتناثر قطع الكرتون وبقايا خرقي البالية ، ولا يبقى من كل ذلك سوى صوت قهقه مرافقيه وهم يصوبون بنادقهم نحوي في محاولة قذرة لإخافتي أنا الذي كنت دائما اتشجع بتلك الكلمات المدونة على جداري والتي تشعرني ولو كذبا أني أفضل منهم .

لا أدري لماذا كان موكب العقيد عبد السلام يحرض تلك الكلمات المدونة فوق جداري والمحفورة فوق ذاكرتي . ربما أنني كنت أشعر بدون إدراك مني أن تلك الكلمات لن ترى النور في ظل وجود هؤلاء الناس ، أو أنها وجدت للقضاء عليهم . وفي كل مرة كنت أغمض عيني وأتخيل صنعاء بدون العقيد عبد السلام ومرافقيه بسياراتهم الموارية الأبواب باستفزاز لا داعي له مطلقا .

كان العقيد عبد السلام متزوج من أربعة نساء دفعة واحدة ، وكان هذا أكثر ما يستفزني أنا الذي لم أتزوج مرة واحدة في حياتي ، لكنني كنت أقنع نفسي أني أكثر حرية منه فكيس نومي لم يخلو ليلة واحدة من جنوني ولم اعد أتذكر الأسماء ولا الملامح .. لا يهم أو لست متشرد الحارة كما يحلو لفاطمة ابنة العم صالح أن تلقبني ، فليكن !!

كل زوجة أنجبت له خمسة من الذرية ليصبح أب لعشرين طفل وطفلة !! لا أتذكر من من مرافقيه يوما قال مخاطبا صاحبه " كيف يكون شيخ لو لم ينجب العشرين ؟ "

لعلها حقيقة.. الشيخ يجب أن يكون هكذا ، مرافقين على استعداد لإنهاء حياتك أن تجرأت وسألت موكب من هذا ؟ وسيارات بدون ارقام ومعتمة لا تعرف من بداخلها ولا يحق لك أن

تعرف أصلا ، وقطيع من الأبناء لا يعرف والدهم أسمائهم جميعا ولا يعرف لكل أبن من هي أمه ..

-2 -

كثيرا ما كنت أتجول في حارتنا حتى أصل إلى بيت العقيد عبد السلام عن نية مسبقة ، لعلي ولو مرة واحده أتمكن من إشباع فضولي بمعرفة ما وراء سوره الكبير الذي يرتكز فوقه حاجز مخيف يحجب كل ما بالداخل وكأنها منطقة محرمه .. وتتقافز إلي ذاكرتي بيوت تعز الجميلة الحمراء والخضراء وزهورها التي تزيدها جمالا ويحاصرني السؤال الدائم أين منها هذه البيوت التي تكلف أصحابها الكثير ثم يغطونها بسور من القار المقرف .

كنت أسمع أن خلف هذا السور روايات مخيفة ، سجن يقبع فيه عدد من الشباب الذين خالفوا عبد السلام أو رفضوا تسليمه اراضيهم ، بقايا تجار صغار أقفل العقيد عبد السلام محلاتهم لسبب او لأخر وانتهت بهم الحكاية مجانين في سجن بيته .

كانت حكاية عبد السلام تاريخا هو الطرف الأشد فتكا فيها ، ومع ذلك كان يذهب للعمرة كل عام فيربك فهمي للدين وللرحمة والقيم ، وفي كل عام يذهب للعمرة مع حشد من رجالاته كان يذهب بأموال الدولة ولا يدفع من جيبه ريال واحد ، بالتأكيد فهو العقيد عبد السلام والشيخ الذي لا يبتسم والذي يعمل حسابه حتى اكبر رجالات اليمن .

فجأة شعر أحمد مهيوب برغبة ملحة في إغماض عينيه قليلا إذ لم يعد قادرا على استيعاب كل ما يحدث . من يخيط كفن الوطن غير هؤلاء الفاسدين الذين يحولون أضواء الفجر إلى أسنة بنادق وزمجرة رعود بشرية يتداخل فيها الخبيث والطيب .

كانت الأيام التالية لحادث بسط العقيد عبد السلام لأرض محمد قاسم تتابع على حارة أحمد مهيوب يوما يوما ، وألما ألما . محمد قاسم أطلق صرخة إغاثة مكتومة الصوت لم يسمعها أو يكترث لها أحد فأصيب بجلطة شلت يده اليسرى تماما . كان أحمد مهيوب يتناسى تفاصيل تلك الفترة بصعوبة . لا شيء يشبه خسارة الأرض إلا الموت . كل شيء تحول منذ تلك الحادثة وبدأ مفعما بالخوف . وتحولت أبجدية السطوة إلى عاصفة حادة أيقظت كل الكلمات النائمة فوق جدار أحمد مهيوب والتي كان يسجلها بإصرار غافلا لكل أخطائها الإملائية ، قادرا فقط على ملامسة صوت هزاع يرددها أثناء استذكاره لدروسه الجامعية فيملأ حافات النوافذ و معاناة الناس البسطاء بضوء يشبه سكينة بحر منسي فيصبح الأمل حاضرا بقوة ممزوجاً ببشر متزاحمين يبحثون على شيء لا يعرفونه.

هو الزمن كعادته يخبئ لنا مسالك نهاياتها متأخرة ، يكثف الضباب على طرقاتنا المغلقة فلا نصل إلا إلى حزن غريب لا نستحقه ، فمن يعيش العمر مرتين ؟

جلس أحمد مهيوب فوق كرتونه المتهالك وقد عطَّف كيسه وجعل منه مسندا له ، ينتظر صاحب المطعم أتياً له بالزلابيا وشاي الحليب داخل قصعة الفول الصدئة . كان يقنع نفسه بأن تشرده فوق هذا الرصيف مؤقت وأن صبره على كل هذا البؤس سيزول قريبا . أغمض عينيه وتذكر أيامه في جدة .. تذكر كل شيء .. حتى لون البحر وصوته ، لاشيء كان يشتاق إليه في جدة أكثر من البحر الذي كان يحمله بأحاسيس غامضة ، مبهمة ، لها روعة ألوان الزهور ، وخفة الفراشات ، كان لبحر جدة المساحات الأجمل في ذاكرته .

أخذ يرشق عينيه بزرقة سماء صنعاء وبياض سحبها ، يجوب بفراغ يومه إلا من عمله الممل في غسيل سيارات المتوقفين عند المطاعم والمحلات التجارية ، محملا بمشاعر غامضة تأتيه من بين حروف كلماته المدونة على الجدار خلف ظهره ، حيث لا شيء إلا مثالية الكلمات أو- المصطلحات - كما كان يحلو لهزاع أن يسميها .

البداية

- 1 –

بزغ فجرا أخر ..

خرج هزاع في طريقه إلى الجامعة ، وعرج على أحمد مهيوب لمداعبته كعادته كل صباح ، ليستفز فيه شغفه لعالم بعيد عنه ، يحبه دون أن يعيشه.

ضحك هزاع مقترباً من أحمد مهيوب قائلا له وعلامات التعجب تسبقه:

- ليش عادك هنا لذحين؟
- مافيبيش طافة اليوم للصياح مع الصوماليين ماسحي السيارات . قلبي يوجعنا؟

كان صوت أحمد مهيوب ممتلئاً بالرماد فلم يفهم هزاع ماذا يعني .

- قلبك يوجعك؟ ليش؟ .

أخذ أحمد مهيوب نفساً عميقاً ، مطلقا زفرة موجعة لامست قلب هزاع مباشرةٍ.

- يعني ذاحين شأتأخر على الوزارة، وإلا الشركة حق أبي ؟! هو إلا مساح سيارات . ومضرابة مع صومال ماناش داري من فين أجم . يعني عاد إحنا ناقصين لهم يزاحمونا في فقرنا أمانتك !؟

- قم .قم بلاش كسل .مو من هدرة ذي.

كانت مدينة صنعاء تضج باللاجئين الصومال ، شردتهم حروب بلادهم و القت بهم امواج البحر فوق رمال السعيدة التي لم تعد سعيدة ، يتكاثرون بسرعة ملحوظة ويحتار أحمد مهيوب من الأسباب ، فقد ازدحمت بهم شوارع صنعاء بين شحاذين وماسحي سيارات ، ومنهم من أنضم للقاعدة ليطعن صدر الأرض التي احتضنته . لم يفهم أحمد مهيوب مرة واحدة سر حماس بلاده على استقبال كل هذه الأعداد من اللاجئين من كل الجنسيات . وظلت حيرته تلك مشروع سؤال سيوجهه لهزاع والدكتورة أمل ذات فرصة .

كرر هزاع ندائه :

- يا لله قم يكفيك كسل .

نظر أحمد إلى هزاع كمن يرى إلى ضوء بعيد في نهاية ممر طويل ، أبتسم له وهز رأسه موافقا ، ونهض من مكانه .

لم يكن بمقدور أحمد إلا أن يحب أرضه و وطنه ، ذاك الذي لم يكن بالنسبة له وطنا فحسب بل كان داره وغده المفعم بدهشة الطفولة ، كان وجه أمه الذي طواه التراب ، كان أمانه في وحدته وضيقه وقلقه.

نهض أحمد متكاسلا وقال بصوت خافض كأنما يجره بصعوبة :

- كه قلي ليش كل هاذولا الصومال يجوا ينافسونا في رزقنا يا هزاع ؟
- ضروري . ضروري يا أحمد عشان الدولة تحصل مساعدات يلهف المسئولين نصفها . والا كيف تشتي . ما يكون الفساد الا هكذا .

قالها هزاع مذيلها بكلمته التي بات أحمد يسمعها منه كثيرا في الفترة الأخيرة " الثورة . لا حل سوى رحيل صالح[10]) .

ولا ينسى أحمد في كل مرة يسمع هزاع يردد تلك الجملة أن يقول بصوت لا يخرجه من فمه خوفا من هزاع الذي نهره بشدة حين سمعها منه للمرة الأولى متهما له بعدم حب بلاده : يرحل ؟ من يرحل ؟ .

- مابلا قول عمياء تخضب مجنونة .

قالها أحمد سادا على هزاع فرصة استمراره في الحديث عن رحيل الرجل الوحيد الذي لم يعرف غيره رئيسا منذ طفولته .

كان أحمد حين تداهمه أحزانه ، ولا يجد ما يفعل كان يفر إلى حلمه ، يغمض عينيه ، يحلم بكل شيء إلا ببقايا الماء الممزوج بقليل من الصابون ، وخرقته القذرة التي يوهم الناس أنه ينظف

[10] صالح : الرئيس اليمني علي عبدالله صالح

بها سياراتهم . حتما لم يكن مخادع طالما هم يقتنعون به في كل مرة ويتركونه يغسل سياراتهم بكل تلك المياه القذرة . ليس ذنبه بالتأكيد .

حين كانت تداهمه أحزانه ، كان يحلم بأن صنعاء الجميلة سترتدي يوما ثوب من حرير أخضر لا تنزعه أبداً ، كان يراها ملء عينيه ذات عمارات شاهقة بفن يمني مذهل ، وشوارع واسعة نظيفة ، مرقمه ، ووجوه ناسها السمراء زادت جمالا وسعادة ..تماما كما كان يرى في مدينة جدة .

في الحقيقة لم تكن إجابات هزاع على سؤاله حول الصوماليين تشفي فضوله وسخطه فكان يلجأ للدكتورة أمل ينتظرها أمام باب بيتها من الخارج وحين تصل تؤشر للحارس أن يسمح له بالدخول فيسألها ذات السؤال وفي كل مرة كان يأتي جوابها مغايرا لجواب هزاع " ضروري . ضروري يا أحمد لأن بلادنا وقعت اتفاقيات دولية لحماية اللاجئين واستقبالهم . هذا التزام وعلى الحكومة احترامه "

كالعادة لم يكن يفهم أحمد شيء من كلام الدكتورة أمل ، لكنه كان يحلو له سماعه منها لأنها ابدا لم تذكر ابيه (صالح) بسوء مثلما كان يفعل هزاع .

يقوم أحمد يجر كسله ورغبته بإجازة ولو ليوم واحد .. ويبدأ يومه بغسيل السيارات متحملا منافسة الصوماليين من زملائه ماسحي السيارات . ساخطا على كل ما حوله من صعاب .. يغني .. يشاكس عابرات الطريق بدون ملل ولا كلل .. وتبقى حياته هي ذاتها لا تتغير إلا من تفاصيل استثنائية بين الحين والأخر . كان يجب لهذه الرتابة أن تنكسر .

وبين سطور حياته ، أحداث استثنائية ستغير تفاصيل الحياة وملامح الشوارع والناس ، ستجعل الأيام القادمة لا تتكرر في حياته مرتان

يسمع أخبار من هنا وهناك عن موجة سخط كبيرة في البلد .. يتجاهلها كعادته عندما لا يعجبه أمرا ما ويقدم لنفسه الأعذار ((أنا مجرد متشرد الحارة وهذا أمرا لا يعنيني انا بالذات)) .

ليعترض من يعترض وليسخط من يسخط وليثور من يثور .. المهم أن تبقى زاويته أسفل عمارة العم صالح أمنه لا تصلها المخاطر .

ينتهي الحلم عندما نبدأ نتلمس حوافه خشنه وصدئة بفعل الواقع الصعب غالبا ..وعند السير فوق الطريق سنتعلم كيف نستغني في كل مرة عن ملمح من ملامح وجوهنا وربما أمالنا .. و متى ما وصلنا للنقطة الأبعد من المشوار سندرك أننا تخلينا عن الكثير من احلامنا وان هذه المرحلة بالذات لا تشبه نقطة الانطلاق مطلقا .

-2 -

إنها .. لحظات من نوع أخر ..

ثم ماذا أيها الشباب .. الحقيقة متعبة حد الفرار منها ، والحرية قاتمة حد سيطرة عتمتها على كل التفاصيل والنوايا .

هل بدأنا النهاية ، أم أنها تفاصيل الجنون الزائدة عن حد التحمل ؟

ما يزال بينكم وبين حلمي بالحرية و بين كل تلك الكلمات المتراصة فوق جداري غموض من نوع أخر .طفلا كنته .لا أعرف الخوف أو القلق . لم أكن أفتح للمدينة حضني إلا لكي تحيطني بهالة من الأمان . ربما كنت حرا دون أن أدري .

لا أدري كيف نصبت كل تلك الخيام في الشارع الخلفي لمسكني ، ذهبت ذات صباح لغسيل سيارات من يصدقون أني أنظف بخرقتي البالية أوساخ سيارتهم ، فوجدت معالم المنطقة تغيرت ، خيام متناثرة ، حمراء ..زرقاء .. صفراء ..صغيرة..متوسطة ..كبيرة الحجم

غريبة بدت لي الشوارع .. هل أضعت الطريق ؟ هل سرت في شوارع غارقة في هموم المدينة ؟ تأملت الوجوه من حولي ، أغلبها إن لم يكن جميعها لا أعرفها .

كنت أسمع منذ أيام عن إضراب طلبة الجامعة ، لم يكن يعنيني الأمر فلست طالبا جامعيا ، كما أنني لم أفهم مطلقا تفسيرات وتبريرات هزاع لما كان يحدث ، خاصة أنه كان في كل مرة يلقي أبشع الصفات على (أبي علي[11]) ، وهو ما كان يثير سخطي ولم أكن أتفق معه مطلقا بنظرته تلك .

خيام ...خيام...خيام

فكرة مبهرة فكرة الخيام هذه ! كيف لم افكر بها من قبل ، فلا علاقة البتة بين حجم الحرية داخل خيمة عن تلك التي بداخل كيس . تبا لي ، أضعت عمرا طويلا داخل كيس . لم أكن ادرك حجم غبائي إلا عندما شاهدت تلك الخيام .. لا بأس فما يزال في العمر متسع للعديد من الخيام القادمة وسيكون لي واحدة بالتأكيد .

راودني شعور بأني نمت فاصلا من العمر حدث فيه الكثير ، حتى أخذت الشوارع هذه الصورة الجديدة دون أن أعرف ، أو ربما أنني كما قال لي صلاح حين سألته مستفسرا عن سر غزو تلك الخيام لشوارعنا وحاراتنا ، ربما اني فعلا مجرد متشرد لا أفهم ولهذا ما فهمت كما قال صلاح ، ربما أني فعلا مجرد قشة زائدة فوق قاذورات صنعاء لا أكثر .. كما كان يحلو لصلاح أن يردد بصوت عالي غاضبا في وجهي تاركا لي الوك الألم والشعور بالدونية ،كلما أستشعر خوفي من ثورته تلك ،

أو ربما كما قال هو هي ثورة الشباب والمثقفين ولست منهم .

ومع ذلك قررت أن أتسكع صوب ساحة التغيير هذه المرة ، فما الذي سأخسره .

تجولت وسط الخيام المتنوعة بين الصغيرة والكبيرة والمتوسطة ، جميعها تسد الفراغات في ذاكرة مثقوبة من منتصفها فلا يبقى فيها شيء .. بحثت عن وجوه تشبهني فقد قال لي هزاع أنها ثورة الشعب .. ثورة الغضب على الظلم والفساد ، من أجل الحرية والكرامة . هاهو إذن يطبق دراسته فوق الشوارع والحارات . وأنا أكثر المحتاجين للحرية والكرامة . أنا من افترشت الرصيف حينما رقد غيري في امان مساكنهم . أنا من فرح بالزلابيا والشاي الحليب في قصعة الفول الصدئة في وقت تعفنت مزبلة الأثرياء ببقايا اللحم والفواكه ,

انا .. وانا . يا لله كل هذا البؤس لي أنا ؟ كل هذا الظلم لي أنا ؟

هل حقا كان يجب أن أكون أكثر ذكاء لأفهم كيف تحولت الشوارع الهادئة إلى ضجيج دائم ؟

((هذه المدينة الصامتة تنتهك حق فقرائها بالحياة كل يوم)) ..

((الدولة المدنية هي الحل ، ولا خيار سواها . حكم العسكر ما عاد ينفع))..

تتناثر الجمل المبهمة من أفواه قاطني خيام متناثرة فوق أبجدية السطو على شوارع لا تعرف الأنين ، لا أدري لماذا تذكرت العقيد عبد السلام الذي كان يسطو على كل أرض تعجبه ، ثم

[11] علي: الرئيس اليمني علي عبد الله صالح

يبني فوقها قصر يصرخ بفساده بصوت كالزلزال ولا أحد يرد عليه .. أكان هذا بسط من نوع أخر ؟ لعل هذا بسط الفقراء .. بسط الخيام وأصحابها . ربما .

أصوات كانت تنبعث من تلك الخيام لا تغفر خطيئتي في عدم الفهم ، ولا تتركني أغفر لها أنها أقلقت سكينتي فوق رصيفي .. ذاك الذي كنت اسميه الرصيف المنسي .

"الأن بدأ الناس مرحلة الصحو ، لا غفلة بعدها " ...

" لنا الحرية..والكرامة ..والمواطنة المتساوية "...

أصوات تنطلق بألم مجبر على التعبير بصوت عال من على خشبة مسرح الساحة ومن داخل الخيام المتناثرة والمتنوعة .

مهلا ..

الكلمات الأخيرة المنبعثة من هذه الخيمة الزرقاء أعرفها تماما .

" لنا الحرية ..والكرامة ..والمواطنة المتساوية "

نعم هذه هي كلمات هزاع التي نقشتها على جدار مسكني ، ما كدت أنتهي من صحوتي تلك ، إلا وقد وجدت رأس هزاع يرتفع فوق منصة صغيرة داخل تلك الخيمة الزرقاء . صدقت يا صاحبي ، أنت تردد الدرس بمهارة عالية هذه المرة والجميع منصت لك حد الاقتناع بأنك أخر الأنبياء الجدد . حتى أنا يا صاحبي سحبتني كلماتك داخل خيمتك تلك ، انزويت في ركن بعيد أستمع على استحياء ، رمقتني من بعيد ، فعلى صوتك بفعل الميكرفون الذي كان بيدك :

- أحمد ، تعال ، اليوم ترى كلمات جدارك ذاك تنطلق في سماء غدنا الموعود .

لم أفهم من كل ما قلت يا هزاع سوى (تعال) فقدمت صوبك ..بحذر من يخاف أن يحدث بلبلة فتفر تلك الكلمات الجميلة من جداري ومن الميكرفون في يدك يا صاحبي .. فما أعود أراها ابدا وهو ما لا أطيقه .

أجلسني هزاع على مقعد بالصف الأمامي .. تأملت جيراني في ذات الصف . رجال ذوي هيبة وجلال ، مسافات طويلة تمتد بين ملامحي وملامحهم ، بين مظهري الخارجي ومظاهرهم ، هممت أن أقوم من مكاني خوفا أن يكون هزاع قد أخطأ التصرف ، فكيف لمتشرد مثلي أن يجلس بجوار هؤلاء . امتدت يد جاري تمنعني من النهوض وأمرني صوته (اجلس وأسمع واستفد وتغير) ، (هذه هي المساواة ، لا فرق بيني وبينك) .

هذه هي المساواة إذن ؟، ولا علاقة لها بسعاد كما فهمت ذات بداية !!..

يا لله ..

هل أنا ساذج ؟ هل أنا غبي لا أفهم ؟

كل شيء يربكني ، لم أصبر طويلا على حديث منمق لم أفهمه ، وددت أن اقول لهزاع أن من تخاطبهم بهذه اللغة المعقدة ربما يفهمون ما تقول خير منك ، توجه بحديثك يا صاحبي نحوي ومن مثلي بلغة سهله نفهمها ، الم تقل أن الثورة ثورة شعب فتحدث بلغة يفهمها الشعب يا صاحبي .

كان الفرار من الصف الأمامي يشبه تماما تعريك أمام الناس غير أبه بهم .. لكنني فررت . وتركت هتافات هزاع تلاحقني حتى وصلت الخيمة الخامسة .

ومنها وصلت إلى رصيفي على قارعة الطريق ..

تعاقبت الأيام وتوالت الأحداث وزادت الهتافات ،

الشعب يريد إسقاط النظام ،

الشعب يريد إسقاط النظام ،

في رأسي ، كانت ما تزال أصداء هتافات ساحة التغيير ، وخيامها ، وناسها وضجيجها ،

لم اكرر تجربة زيارة الساحة إلا بعد فترة طويلة من الانتظار للقادم الذي لم يأت بعد !

-3 -

- ما هذه الفوضى ؟ لقبوا والدي بالشهيد ، ولم يسلموني جثمانه بحجة أن الدفن سيكون في موكب جماعي لكل الشهداء الذين سقطوا في ذاك اليوم اللعين .

كان عبد الله يلعن كل من وعد الوطن بالتغيير والمحبة ثم حولوه إلى بؤرة بركان لا يخمد . أما آن لهذا الجنون أن ينتهي..كان عبد الله يردد بدون وعي .

- أجلس يا عبد الله وقلي مو بك ؟
- قنصوا أبي بالمظاهرة حق أمس . قالها عبد الله وقلبه يكاد ينفطر قهرا وألما .

هبت رياح شتوية جافة شديدة البرودة فوق وجه أحمد في تلك اللحظات في يوم من أيام شهر مايو الحار . ما بهم هؤلاء الناس لا يعرفون ماذا يريدون ؟ . تسال أحمد في نفسه . كل شيء يتحول إلى ذرات خفيفة من الحلم تذهب بها الرياح إلى البعيد البعيد . لا شيء مما كان في البداية .

- عبد الله .. مش أنت مكنتني ابي ثوري ، ابي ثوري .. ما ذا قدوه جونان . أكيد كان ممكن يقتل قدك لابد تكون متوقع . ليش عادك تعترض ذاحين .

كان رجل طيب. أختار طريق الحرية ولم يعيشها . الله يرحمه .سقط مثل قطرة مطر صافية روت مساحات من هذه التربة الطاهرة . هكذا أنهي عبد الله حديثة مع أحمد وكأنما أراد أن ينهي كل هذا الجنون دفعة واحدة .

سأغفر لهم كل هذه الفوضى لو أنهم سيجعلون لي بيتا غير هذا الكيس فوق رصيف عمارة الحاج صالح .
سأغفر لهم كل هذه الفوضى التي أربكتني كل هذه الشهور ، إن كنت سأجد معنى للكلمات التي فوق جداري كما وعد هزاع .
سأغفر لهم أن كانت هذه الثورة قادرة على أن تجعل قدري يلامس قدر سعاد ولا يجافيه أبدا .
تبا . ما العمل ؟ الثورة قامت لمن هم يشبهونني في التفاصيل والأقدار لكنني مازلت حتى اليوم وبعد مرور كل هذه الشهور ، لا زلت متوجس من الثورة ولا أدري لماذا .
أعترف لكم هذا يتعبني فأنا ثوري منذ بدايات الحلم الأولى عند التحاق هزاع بكلية العلوم السياسية وبداية تسجيلي لتلك الكلمات أو المصطلحات كما كان يحلو لهزاع أن يسميها . ما الفرق ؟ أوليس معناها هو ذاته ؟ هكذا يحب المثقفون أن يؤكدون أنهم يختلفون عنا . لا باس . لا تفرق معي على الإطلاق . لتكن مصطلحات كما يريد .

أعاده إلى واقعه ، صوت سيارة مجنونة كادت أن تطير رصيفه بما فيه . سيارة صالون نوافذها معتمه وخلفها موكب مكون من عشر سيارات أخرى محملة برجال نساهم التاريخ فظلوا كما كانوا زمن الإمامة والتخلف ، شعورهم تلامس أكتافهم بتناقض مخيف بين الرجولة والأنوثة ، مدججين بما تعرف وبما لا تعرف من الأسلحة . لعنة الله عليهم. من هؤلاء ؟

- الله يشل الشيخ والمشيخة ، ولا تقول موكب الرئيس .
- أيين الرئيس ؟ موكبه مايجيش ربع هذا الموكب .

نزلت مساحات من الظلام تشبه ليال وحيدة خالية من كل شيء إلا من البرودة القارصة .

مرق الموكب مسرعا كأنه رمح ذو سنن متعددة ، انزل شرارة الشطط في كل صوب وحدب حتى صغار الحارة ما سلموا من جنون سرعتهم وبشاعة تعجرفهم .

تبعثر الصغار في زوايا الشارع وأركانه وتطايروا كأنهم أوراق شجر خريف صفراء مليئة بملامح خوف الرحيل والإقصاء ومرق الموكب بمحاذاة مكان جلوسهم مباشرة ، تطايرت لعبهم التي صنعوها بأيديهم في كل الجهات ، سبحان الله كرتهم من شدة الضربة التي أصابتها من أحدى سيارات الموكب المجنون التصقت بمهارة عجيبة فوق جدار عمارة العم صالح ، فوق كلماتي مباشرة .. تحديدا ولسخرية الأقدار فوق كلمة (

الدولة المدنية) .. هكذا جميع مسببات الثورة تراكمت على جداري . يا لله . إنها حقا حكمة إلاهية لن أعرف مغزاها إلا لاحقا .

تأمل أحمد الكرة وقد أصبحت جسم مسطح ملتصق بجدار العمارة ، مختلطة بدم أحمر لم يعرف مصدره إلا عندما سمع صرخات طفولية تهز المكان والشارع المتهالك من جرائم موكب الشيخ ، كان الصغير ممسكا بساقه وقد طارت منها القدم ، سقط الصغير مغشيا عليه وتجمع السكان حوله كأنهم جمع من النمل . أيها المساكين . برودة التسلط تكبر في المكان ، و صوت القهر يرتفع في السماء ويتساقط مطر غزير فوق هذا الفراغ المتحفز منذرا بالثورة ضد المشايخ والظلم والفساد و بوركت هكذا ثورة .هرب الموكب . أو هكذا خيل لي .وضاعت الحقوق وسط الزحمة وهيبة المشيخة . لا سامحهم الله .

من يسترد حق الصغير من شيخ كبير كهذا ؟؟

من يرد له قدمه ؟ من يسعف طفولته وقد طار موكب الشيخ إلى حيث لا يمكن أن تطاله يد العدالة هكذا لأنه شيخ . ولازلت أتذكر أبن العم صالح صاحب العمارة التي يؤويني جدارها عندما تعارك أمام باب مدرسته مع أبن احد المشايخ فترجل أحد المرافقين من سيارة مرافقي أبن الشيخ وأطلق أعيرته النارية في جسد الصغير وفرت سيارة أبن الشيخ وسيارة مرافقيه دون حساب أو عقاب إلى يومنا هذا . وغرقت حرقة العم صالح على وحيده في بحر سلطة الظلم وسطوة المشايخ .. ومن ذا الذي يستطيع ن يقف في وجه شيوخ هذا الزمن، وأي زمن هو هذا ؟

ربما أنني عفت ساحة التغيير لأنني لم أسمع شعار واحد رفع ضد فئة المشايخ التي ظلمت وقست وسطت أمام عيني عدة مرات .

ربما أنني عفت ساحة التغيير لأنها استقبلت المشايخ والباسطين على الأراضي والظالمين للعباد .. حقا أربكتني الثورة وخلطت مفاهيم كلماتي العالقة على جدار عمارة العم صالح تبحث عن ساحات أخرى أكثرا ثورية وصدقا .. ساحات لا تغتصب كما تغتصب الأراضي في بلادي ومن الفاعلين ذاتهم .. تباً هل أنا الرجل البسيط أكثر فهما وإدراك من شباب التغيير .. ام أنه غروري الدائم ليس إلا من يصور لي أني وحدي من يفهم أن الثورة فقدت معناها منذ انضمام العقيد عبد السلام إليها .

الدنيا بخير .والوطن بخير .

كم هي متعبة ذاكرة هذه الفوضى التي لا ينتهي وجعها .

ولا زالت الحيرة في تلك الدوامة شائكة التعقيد .. من ضد من ؟ ومن مع من ؟

حدق أحمد في ذاك الموكب . وحاول إيقاظ كل تلك الترسبات التي كانت تنام في ملفات ذاكرة الوطن ...

كل شيء بعثرته غطرسة المشيخة وضباب فراغ العادات والتقاليد وكل هذه الموروثات المترنحة حد الانزلاق في متاهات الجنون المنكسر على حواف شعب متعب حد الإنهاك .

صوت رجل يترنح في الشارع من إعصار موكب الشيخ :

- فعلا نحن بحاجة إلى ثورة تعفينا من هؤلاء . وتحمي اليمن منهم .

لا سامحهم الله . ليلهم ما يزال يضاجع عتمة الوطن ! من أي نافذة ستشرق شمس الثورة إذن ؟

نفض أحمد بقايا الغبار الذي أحدثه موكب الشيخ فوق جسده وشعره وكيس نومه .
((الشعب يريد إسقاط المشايخ)) .. لماذا لم يرفع الثوار هذا الشعار أبدا أوليس المشايخ أشد فتكا بالمدنية من العسكر ؟ . هذا سؤال هام ، لابد أن يسأله غدا لهزاع ، فحتما الجواب لديه حاضر ومقنع ، فهزاع صوت الثورة الشبابية الذي يعرف كل الإجابات لكل سؤال يحيره .

ماذا سيبرر له هزاع ما حدث ؟
الطفل المسكين نقل للمستشفى وأضيف أسمه ألى قائمة المعاقين في هذا البلد ليس الا ..
والزوبعة لا تزال تسكن الشارع وزوايا البيوت المحيطة .. ما يشبه الخوف الممتزج بالحزن سيطر على سكان الحي المحاطين بفيض الخيام .. والأيام تمر دون بارقة أمل .

- 4 –

كان أحمد يجهز كيس نومه عندما مر بالقرب منه هزاع في طريقة إلى ساحة التغيير . تلك الساحة التي يتجمع فيها الفرح المتبقي والحزن والخوف معا ..

- أيش قدك باترقد يا أحمد ؟
- وليش لا ؟ مو أجلس أسوي ؟
- هيا تعال معي الساحة وأنت شا تنسى النوم نهائي .

شيء من اشواق الطفولة ، وحماقات الصبا تكاتفا لإقناعي ، ما الذي يمنع ؟ لي مدة طويلة لم أعد فيها إلى ساحة التغيير ولم أجرو على تجريب حظي فيها . هكذا دونما مبرر مقنع .حقا ما الذي يمنع ؟ لم أتردد . ولم أتأخر . أو لست شاب ككل الشباب الثائر ؟

صورة ما لامست قلبه . كان يريد أن ينهي حاله توجسه من الثورة ويركن إلى قناعة تامة بها .

سار بمحاذاة هزاع مصمما على اكتشاف هذه الساحة التي قلبت كل شيء في حياة وطن بأكمله

أستعاد وجه الثورة منذ خطوطها الأولى بألقها وحزنها . بسحرها وقتامه جمعة الكرامة التي لم يفهمها أبدا . أخرجت جمعة الكرامة كل بذاءات الدنيا ووحشيتها . تذكر كل ما سمعه عن جمعة

الكرامة وهي تصرخ في ذاكرته وذاكرة كل يمني . يعرف كم هي الساحة حزينة . ولا يفهم كل ذاك الثقل الذي اصابها منذ أن أنضم إليها الكثيرون الذين لا علاقة لهم بها ولا دين .

- شانسير للساحة صح ؟
- أيوة .صح؟
- هيا قلي أيش حكاية الساحة ذي ؟ أنا ذكي ما تقلقش . ماشاتعبكش . أفهم بسرعة .
- لم تكن الساحة فقط رمزا للتغيير ، بل كانت حضن للمثقفين والأكاديميين . ساحة التغيير صرخة المظلومين دونما أنين . ليست جامعة للأحلام الموؤدة . إنها شيء أخر يا صاحبي . منها سيبزغ فجر الحرية .

يبعثر هزاع كلماته بلهجة لا يفهمها أحمد كلما تحدث عن الساحة وكأنما كان لابد أن يستخدمها ، ولم يفهم أحمد حتى اليوم ما علاقة الساحة بتلك اللغة المعقدة التي تشبه لغة مذيع الأخبار الذي كان أحمد يشاهده في تلفزيون الكفتيريا نهاية الشارع الذي يقطنه .

لايزال صوت هزاع يسايرهما ويفتح نافذة للملل والرتابة ، لم يكن أحمد يملك أكثر من خيبته في كل هذه الفوضى التي لم يتمكن من استيعابها .

- موبك واهزاع عوجت لسانك مش قلنا شاتحكي لي.ولا تشتيني أرجع رصيفي .
- لا .. لا .. يا أحمد هذه الساحة تبحث عن المزيد من البشر لا العكس .

((ثورة الشباب أو ثورة التغيير السلمية ، هي ثورة شعبية انطلقت شرارتها 3 فبراير وأشتعلت يوم الجمعة 11 فبرايرعام 2011 م الذي أطلق عليه اسم "جمعة الغضب" (وهو يوم سقوط نظام حسني مبارك في مصر (متأثرة بموجة الاحتجاجات العارمة التي اندلعت في الوطن العربي مطلع عام 2011 م وبخاصة الثورة التونسية التي أطاحت بالرئيس زين العابدين بن علي وثورة 25 يناير المصرية التي أطاحت بالرئيس حسني مبارك)).

- دلا .دلا عليا وا هزاع . مو صله ذا الخبر ولا فهمتو شي . أيش من سلمية . أيش من زين العابدين أيش من حسني مبارك. والله ولا فهمتو شي . شا تفهمنا كما الناس ؟

قالها أحمد ساخطا .

لا شي .. الوطن بخير . وسلام الله على شهداء الوطن . شهداء الثورة السلمية . أنا لآ افهم كيف تتحول الأوطان إلى ساحات تقمع . كانت الأفكار تنزلق من عقل أحمد مليئة بالخيبات المتكررة على مدار ثمانية وأربعون عاما من عمر الثورة التي يعرفها . ثورة 26 سبتمبر .

- أحمد ركز . هذه الثورة قام بها الشباب و...
- الله الله الشباب حلو. شباب وشابات طبعا. وأنا شاكون معاهم قلبا وقالبا . قاطعه أحمد منفعلا .

بلع هزاع ريقه : لا أدري أيش أقول لك يا أحمد . تشتي تسمع ؟ لا تقاطعناش .

((والله أنك تشتي ثورة لا راسك وا هزاع . ليش هذا الزنط ؟)) ، حاور أحمد ذاته متذمرا دون أن ينطق بحرف واحد .

- تشتي تعرف كيف بدأت الثورة ، عشان نمشي حبه حبه ؟
- كيف بدأت وا هزاع ؟ تسآل أحمد مبتسما في استسلام عذب لهزاع .
- شوف يا أحمد ، أنت داري أن الرئيس يحكمنا من 33 سنة و ...
- يهنا قلبه . وأين شاتلاقي أحسن من أبي (علي) . قاطعه أحمد منفعلا حد اشتعال الحرائق في صدره .

توقف هزاع عن السير وصوب نظراته الحازمة هذه المرة صوب أحمد وقال له :

- أيش قلنا ؟ قلنا ما تقاطعناش ولا بطلنا ، وإرجع رصيفك أحسن .
- خلاص خلاص . شا أسكت بس كله ولا أبي علي . لا تذكرهش إلا بالخير والا رجعت رصيفي .ماذلحين شاأهددك أنا .

كانا لا يزالا يسيران تحت سماء صنعاء الصافية ، تلك السماء ذاتها التي تصدعت بضربات البرق والرعد والغيوم ..حزمة من الأشهر التي لن تنسيها ذاكرة الوطن .

- قلنا الثورة قام بها الشباب يطالبوا بتغيير النظام ، ويطالبوا بإصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية .

رمق هزاع أحمد من طرف عينه وسأله :

- فيه شي يزعلك بهذا .
- لا . وبعدا ؟ جاوبة أحمد وملامحه الطيبة تكاد تلامس صوت هزاع وتتعارك معه .
- وبعدا .. أسترسل هزاع

قاطعه أحمد هذه المرة بتوتر كاد يمزقه ويلقي به فتات على الرصيف والغربة وقال له :

- على فكرة أنت كذاب يا صاحبي . أنا أسمعهم يقولوا ((الشعب يريد إسقاط النظام)) مش تغيير النظام للمغالطة . شوف أنا كذا ما يعجبناش الكلام . تسقطوا أبي علي ..لآ . قال أحمد رافعا يده أمامه .

كيف لهزاع أن يفهم أحمد ؟ هذا الذي تلفحه رياح الحياة وتحشو ذاكرته بكل تلك الأفكار الصلبة .

- أيوة يا أحمد هم بدئوا يطالبوا بتغيير النظام وبعدها أرتفع سقف مطالبهم إلى إسقاط النظام . وبعدا أسكت عشان أكمل لك قبل ما نوصل الساحة .

رفع أحمد رأسه صوب السماء ونظر مليئا في ذاك الفضاء الواسع ((والله أنه صدق ، السقف عالي جدا ، الله أعلم ما عاد شيوقع)) . رحمة بنا أيتها السماء لآ تجودي بالصعاب في زمن قلت فيه الحيلة .

- أسمع يا أحمد وكن أفهم . شرارة الثورة بدأت يوم السبت 15 يناير بمظاهرات قام بها بعض طلاب جامعة صنعاء وبعض الحقوقيين وتوجهوا للسفارة التونسية واشتعلت الثورة يوم الجمعة 11 فبراير .
- ها .. وليش ساروا للسفارة التونسية يعني ؟ عشان هم قد أسقطوا حقهم الرئيس شايسقطوا حقنا ؟ والله بعيد عنهم . وليش ما ساروا للسفارة المصرية قاهي إلا هي ؟

وضحك أحمد بصوت مستفز يتحرش بصبر هزاع ورغبته في توضيح الأمور لأحمد بحق الجار على الأقل .

تجاهل هزاع كل ظلال أحمد المبهمة وروحه الحيرى بين حبه لأبيه (علي) ورغبته في أن يكون ثائر ويستخدم تلك الكلمات المدونه على جداره والتي لم يتمكن منها الزمن ولا المطر ولا النسيان .

قبل أن يواصل هزاع ، سارع أحمد إلى سؤاله بشيء من المباغته :

- طيب وتونس ليش قاموا ثورة ؟ أيش رئيسهم قدله 33 سنه وملوا منه ؟

ضحك هزاع وقال له :

- كانت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية سيئة وكمان تضامنا مع محمد البوعزيزي الذي حرق نفسه .
- أيش ؟! أيش ؟! أيش ؟!أحرق نفسه ؟ منو ذا المجنون ؟ وعادهم زادوا تضامنوا معه ؟ أيش ذا الجنان . قالها أحمد وقد سيطرت عليه الحيرة .

تجاهل هزاع أحمد تماما هذه المرة وواصل حديثه كأنما يحدث شخص اخر غير أحمد :

- والثورة المصرية تأثرت بالثورة التونسية وقدرت تنهي حكم مبارك الفاسد .
- ها ..حلوة . كل واحد يقلد الثاني مابش حاجة جديدة غير الثورة ؟ مابش إغتيالات من حق زمان هذاك الأسلوب اليمني الذي نعرفه . عادك ذاكر الحمدي والغشمي . قتلوهم وجابوا بدلهم بدون شهيد واحد . ما ضرنا إلا التقليد .

- ((هذا النجاح الذي حققته هاتين الثورتين أظهر أن قوة الشعب العربي تكمن في تظاهره وخروجه إلى الشارع، وأن الجيش هو قوة مساندة للشعب وليس أداة لدى الأنظمة لقمع الشعب. كما أضاءت تلك الثورة الأمل لدى الشعب العربي بقدرته على تغيير الأنظمة الجاثمة عليه وتحقيق تطلعاته)).

قالها هزاع وكأنه يردد درس حفظه عن ظهر قلب ..

تأمله أحمد وتبسم إبتسامه من يعرف كيف يرسمها عندما يعني معنى عمييييق لكلامه.

- الحمد لله . أحسن ما بالثورة هذه أن ماعدناش لوحدي بالشارع . قدهم كلهم يا صاحبي . والنعم .

ساحة التغيير

-1 -

شيء ما لا يفهم في هذه الساحة .

لست أدري من كان يجول بخاطري وأنا اتأمل الوجوه من حولي .. الصور التي تتسكع في أروقة الذاكرة وزوايا القلب .جميعها اختلطت حتى أخذت الملامح ذاتها .

بدأت اتأمل الخيام المكتظة بالناس والمكتظة بالأفكار المتناقضة .. من يعبر الأخر ؟: الناس أم الخيام في هذه الساحة ذات الرائحة الخانقة بالعرق والمخلفات الأخرى . الخيام بهتت ألوانها بفعل حرارة الشمس والوجوه ، لم تعد كما رأيتها في المرة الأولى ، باتت كل تلك الخيام يعلوها اصفرار المعاناة والتعب .. كم تشبة هذه الخيام وجوه أصحابها .. شيء غريب بدأ يقترب من فراغ حياتي المتعب .

ربما كان يجب أن أكون هنا منذ اللحظة الأولى .

أو لست بدون مأوى ؟.. أو لست كثيرا ما أنام جائع ؟ أنا المنهك من تفاصيل عبث الأيام بي . أنا من ينام وحيدا داخل كيس فوق رصيف عمارة العم صالح ؟

هزاع قال لي ذات ليلة باردة " الثورة قامت يا أحمد لإسقاط نظام فاسد أخذ بيتك وأكل قوت يومك ، وتركك تحلم ببقايا رائحة ريحانة دونما فائدة "

استعدت خطوط وجهه وهو يحدثني بلغته التي لم أكن أفهمها لكنني كنت أدرك أنها هامة لأنه كعادته عندما يتحدث بشيء هام يسكب نظراته في الشارع المقابل ويسحب صوته من حنجرته بهدوء مستفز ، تأملت ملامحه في حماسها الممزوج بالحزن والألق . تبا .. ما سر كل هذه الكآبة المصاحبة للثورة تلك ؟ " ماذا يهذي هزاع ؟ .. أنا من ترك ريحانة وفر منها بعد أن تكورت بطنها بفعلتي الشنعاء ..وأي نظام فاسد يتحدث عنه ؟ هل يمكن أن أنام فوق رصيفي عمر بأكمله في آمان تام لو كان نظام فاسد؟ " .. ردد أحمد في نفسه وقد أرهقته الثورة بين بريقها وعدم قناعته بها ..

دخلنا الساحة للمرة الثانية ، بعد فترة من زمن كفيل بالكثير من التغيير في تفاصيلها وزواياها كأي شيء في هذه الحياة لا يبقى على حاله . اصدقكم القول ؟ لم تكن أبدا كما تخيلتها بعد فترة من الثورة ، لم تكن محاطة بالورود التي شاهدتها في تلفاز البوفية والنساء تقدمها للعسكر، ظننت لغبائي بأني سأدخل حديقة للزهور، هكذا ربما تخيلت ولا أدري لماذا .

-2 -

أصواتهم عالية ، مختلطة ، مربكة .

أوف .. ماذا بعد يا هزاع ؟ هو حتى لا يلفت لي . يتحدث مع شباب الساحة بلغة لا أفهمها .

- هذه خيانة واهزاع .. موذا الخبر . ولا فهمتوا شيء . ايش بتقلهم .

غمرتني الخيام من كل صوب . موج منها يعلو فوق الطرقات والممرات . وجوه شابة وأخري عاث فيها الدهر . عسكر . نساء . أطفال . شحاذون . شعراء . سياسيون. رجال جامعة . مغتربون سابقون . من اين هجم كل هؤلاء الناس ، لم يكن لهم وجود في المرة السابقة . تبدو الملامح الخاصة بالساحة للوهلة الأولى أن المقيمين فيها نسوا بيوتهم وديارهم واستوطنوا خيام فوق شوارع مغتصبة ! هم ناس قادرون على

التضحية . هكذا قال لي هزاع .. بينما اعتبرتهم أنا وجه أخر للعقيد عبد السلام لا أكثر .. ربما فقط بحلة مهندمة تتناسب مع موجة الثورات التي حاصرت البلاد العربية دفعة واحدة ، وهو ربما ما جعلني أتشكك في نواياها .

عجبا من يضحي ؟ هم أم أصحاب المباني المطلة على تلك الشوارع ؟

تملؤني الوجوه ، والخيام ، والأصوات التي تستفزني بلغتها التي لا أفهمها . وددت أن تأخذني إغفاءة الهروب حتى أسترد نفسي وسط كل هذا الزخم .

المنصة .. مكان مبهم ومحير تتمترس فيه تلك الوجوه المقلقة التي لم تعجبني ولم أرتاح لها منذ الوهلة الأولى . تتكسر فوقها الخُطب والمحاضرات وحكايات الليلة السابقة .

صوت المكرفونات عالي ومزعج ، أغاني وطنية تصاحبها موسيقى عالية ، وجوه تنسحب نحو بياض أمال شباب متحمس .

رقصات لا معنى لها في ساحات النضال.. او لعل النضال الراقص هو الأجمل والأسهل .. ليتني أناضل بصحبة سعاد ، أو لست مثل غيري ؟ ما الذي يمنع أن أجد ذات يوم سعاد في الساحة تمسك بيدي وتقول لي أبقى بجواري فلا فرق بيني وبينك كلانا نفترش الشارع .. أيه الحلم ما أجملك !!

فعلا هو التغيير فلا شيء يشبه زيارتي الأولى لهذه الساحة .

- هزاع ..أنت قلت باتشلني لساحة شباب التغيير ؟
- أيوة . هذه هي ساحة شباب التغيير .
- هيا أيش للمغالطة ! هذه ساحة لكل من هب ودب . حتى العجائز فيها .

تأملني هزاع كمن تعب من مجاراة رجل لا يفهم مثلي . هكذا بدأ لي وهو يتأملني بصمت . ربما تمنى أن أغرب عنه في تلك اللحظة بالذات .

- أسمع يا أحمد أنا باروح المستشفى الميداني أزور صاحبي . بتجي معي بدون هدرة زايدة ؟

أه هزاع .. بدأت آمل حتى نظراتك صوبي . أريد أن أستأنس المكان والأصوات مزمنة التعب . ربما أني لم أنم جيدا ليلة البارحة . لكنني اليلة بالذات لا نية لي بالنوم وسأذهب معك حتى إلى جهنم .

لكنني ما زلت لا أفهم ما علاقة كبار السن وشحاذي الشوارع بثورة الشباب ؟؟ سامحك الله يا هزاع ليتك شرحت لي بلغة سهلة أفهمها أو ليست هذه الثورة قامت من أجلي كما قلت ؟ كيف وأنا لا أفهم لغتها ..

عبرنا الممرات وتجاوزنا خيم كثيرة ومررنا أمام خيمة زادت حشود الناس فيها حتى تكاد تفيض بمن بها . وقفت أمامها مبهورا بتلك الأضواء والصوت النسوي الذي ينبعث منها . تأملت أبجدية المكان وقسوة صرخات حروف الكلام :

- سنسقط الطاغية . السفاح . علي عبدالله صالح .
- هذا النظام مجرم ويجب أن يحاكم وعلى رأسه الطاغية علي عبد الله صالح .

كانت الاصوات تتسابق وتتقافز من الحناجر بألم وقهر عقود من الصمت والتحمل .

لكنها قيدتني بمغزاها .. هم يريدون إسقاط الرئيس .. هذا يبدو واضحا لي تماما الان ، لم يعد عندي شك ،

ولكن ..

هاه .. أبي علي ؟ طاغية !!

ما لذي تقوله هذه السيدة في حق أبي علي . سفاح ؟ طاغية ؟ شممت رائحة الموت والكآبة . تبا ما لذي جعلني أصدق هزاع وأتي معه إلى ساحة تبعثر أبجدية اللغة فتفقدها جمال أدبها وسحر خجلها امام البشر . عيناي تكادان تقفزان فوق الرؤس لعلني أرى صاحبة الصوت الجريء .

شعرت بأنني أنزلق إلى الهاوية . وشعاع الفجر المزعوم يرفعني عاليا حتى أكاد أسقط واتماهى في زمن لا أفهمه .

والأن .. ماذا بعد يا هزاع يبدو لي أننا نمتزج بخيباتنا وأفراحنا .اللعنة .

استيقظت على صوت هزاع يهزني :

- أعجبك كلامها ؟ هذه سيدة المقام . توكل كرمان .

"توكل كرمان ؟؟ سمعت هذا الأسم ذات يوم منذ مدة وانا أمسح زجاج سيارة الفندم عبد السلام ، وكان بائع الجرائد يصرخ بأعلى صوته : خذ لك جريدة . أعتقلوا توكل كرمان . ورد عليه الفندم عبدالسلام :

- هات واحدة .. لعنة الله عليهم المجانين سيجعلون منها بطلة تأسرعقول الناس".

صدقت يا فندم عبد السلام !!

جعلوا منها بطلة !! ردد أحمد في نفسه بكثير من الحيرة التي سيطرت على الكثيرين ..

بل هي سيدة الثورة وإلا ما معنى أن تكتظ خيمتها بكل هذه الحشود . أربكتني كل تلك التناقضات التي فاض بها الوطن حتى باتت تخنقنا .

هي روضت البحر وبعثرت موج الطوفان . لا أملك قولا سوى أني انبهرت بها . لكنها خذلتني بشتمها لأبي علي . أخترق صوتها الجهوري و حماسها العجيب صمتي المغلق على خوفي وأوهامي . ايتها السيدة الفولاذية . قليلا من اللين . ترفقي بي . فأنا المتسول الذي ينام داخل كيس ووجوده هنا مجرد فضول لا مصادفة . ربما جاء ليحترق على أحراش كلماتك يا سيدة المقام .شيء فيكِ .. في صوتكِ يسبر الأغوار بسرعة مذهلة . ومع هذا عبثا تحاولي إقناعي بأن أبي علي طاغية أو سفاح !

ماذا لو قرأتي ما يجول بخلدي ؟ ماذا لوطبقتي علي عقوبة الإعدام صمتا ؟ ماذا لو ربطتي مشنقة الغضب حول رصيفي وكيس نومي وقصعة فولي الصدئة ؟؟!

ماذا لو اتهمتني بالعصيان وطردتني من سحر المكان وزحام الساحة الذي بدأ يغزو جوانب نفسي وأخشى أن يسيطر على ذاتي ؟ ..ماذا لو القت بي في مقدمة صفوف المتظاهرين لاكون الضحية الاولى للموت كما حدث لكثير من الشباب كما عرفت لاحقا؟

سمعتها تصرخ وتصرخ .. حتما هي مثلي فكم تمنيت أن أصرخ منذ زمن لكنني كنت حتى أذا رفعت صوتي قليلا وأنا أغني ، أحبطني صلاح بملاحظاته الدائمة :

- تأدب يا رجل وأخفض صوتك . ثم أن الغناء حراااام .

كان يمكن للصمت أن يكون له حضور أجمل في هذه الخيمة بالذات .. فأنا لا أطيق الأصوات التي تصب في سب أبي علي عبدالله صالح..

لكن هكذا التغيير يغير كل شي ، ويتركني مرتبكا أمام امرأة ملامحها جافة وصوتها يتصاعد للسماء علوا .. لا نية لهم اليوم إلا برفع سقف المطالب وطبقة الصوت .

لقد كانت المسافة التي تفصلني عن ساحة الثوار أكبر من مستوى فهمي ووعيي بهذا الزلزال الذي سيخرج كنوز الأرض كما قال هزاع .. كنت غير قادر على التكيف التام مع رياح التغيير المزعوم ..

وجهي تغير . صوتي ربما فقدته أمام خيمة توكل كرمان فلا أنا قلت لها – لبيك- ولا أنا قلت لها - تبا لك – هكذا أنا ككل شيء في هذه المدينة خليط من الفرح والحزن . من الظلام والنور . من الصمت والهتاف ..من الإيمان والشك .. ككل البسطاء لا افهم خير ما يحدث من شره .

كانت ساحة التغيير شيء مختلف عن كل مارسمته في خيالي .

كانت مساحات واسعة لأحلام الناس الذين لهم امال علقت في رحم الزمن وتعسرت ولادتها تماما .. كانت كما قال لي هزاع ملتقى لكل الوطنيين المحبين ..أحاطني صمت مطبق وسط كل تلك الضجة المفتعلة كأننا في سوق لا نعرف ماذا يبيع .

- 3 -

فجأة ..وأنا اتسكع في ساحة التغيير ،

شممت رائحة أعرفها تماما ، تحرشت بذاكرتي ، وخلعت قلبي كأنني أعيش لحظات تركت بصماتها في قلبي . لفت بحذر شديد صوب يميني حيث تنبعث الرائحة .. وكانت هي كما تركتها منذ ثلاثة أعوام ، لكنها هذه المرة تحمل طفلة لها ملامحي ولون بشره والدتها ، طفلة في عامها الثاني .. لا تتوقف عن البكاء والصراخ ووالدتها تقف مع الجموع تهزها بعنف شديد حتى تكاد تخلط ملامحها ، ولا تكترث للجوع المسيطر على طفلتها .

- ريحانة ...

صوتي المنبعث من حنجرتي المتعبة من طول الصمت ،تبعثر أمامي يسترد الماضي وليلتنا الأخيرة .

- ريحانة ؟ هذه بنتي ؟صح ؟ جاوبيني ..الله يشلك .

التفتت صوبي كأنها سهم مسموم أصاب صدري مباشرة ، وأسرعت تغير إتجاة وجه الفتاة نحو الجهة الأخرى ، كأنها أرادت أن تقول لي (لا هي ليست أبنتك .. ايها المتشرد ..)

ريحانة .. يا حلم الليالي العتيقة . يا جنون الطيش القديم . اهذه أنتِ ؟ أما زلتي تذكريني ؟ أحمد .. نعم أنا أحمد .. حبك الأول والأخير ؟ وهذه ابنتي دونما شك . من ستكون إن لم تكن هي ذاتها ؟ عمرها من عمر لقائنا الأخير عندما دحرجتي مفاجأتك لي ، تلك التي ألقت بك خارج حدود رصيفي وفراغات كيس نومي حتى هذه اللحظة .

اليوم فقط وجدت لهذه الساحات مفاجآت محببة .. ومعنى حقيقي غير إسقاط النظام وهذيان المثقفين .. أنتي يا ريحانة ..

- ريحانة . ما عرفتيناش ؟
- عرفتك يا ناكر بنتك . موتشتي مني . خلي لي حالي أمانتك .
- أيش جابك الساحة ؟
- أيش جابني ؟ أيش جابك أنت ؟ أنا هنا مع كل الأخدام حق عصر .
- أيش فهمكم بالثورة ؟
- بطل هدرة زايدة أني أجي أكل وبس . وأاكل بنتك يا مجرم . كل يوم يصرفوا لنا أكل تحسبني عادني بفلته ؟
- يصرفوا لكم اكل ؟ من هم ؟ وليش ؟
- ايوة أكل يا جاوع . ولا تحسب هذولا الناس كلهم ايش يسوا هنا ؟

" لعنة الله عليك واهزاع جالس تهدر هدرة فارغة ما فهمتو منها شي ، قلك البوعزيزي والمدري موصله . قلي فيه أكل كل يوم بجي مغمض بعدك بعدك . ماهكذا والله أنهم شيسقطوا أبي علي عبدالله ..الملاعين ..يا فعلتاه !! "

هكذا نطق ذهول أحمد في تلك الامسية الاستثنائية في حياته ... تحيطه غمامة من الجهل وعدم الفهم لكل ما يجري من حوله .

وفي ثوان ابتلعت أمواج البشر ريحانه وريحها . كأنه لا رأها ولا رأى أبنته تذكره بجريمته .

أخذ الذهول يسيطر على أحمد .. ما كل هذه التناقضات ؟ هو يثق بهزاع وهزاع يقول ان هذه ساحة الحرية والكرامة وهو يتوق لحياة كريمة يبتعد فيها عن كل الألقاب التي لصقت به - متشرد الحارة – ماسح السيارات-

ظل أحمد صامتا .. مأخوذا بكل ما حوله من وجوه وأصوات جميعها تحلم بغد أفضل ، غد تعاد لليمني كرامته كما قال له هزاع ، غد لا يحتاج اليمني أن يترك بلده ويغترب في بلاد الآخرين ليرمى بعد عشرات السنين خارج الحدود مهانا مستضعف لا حول له ولا قوة ..هكذا لأنه (يماني عزك الله) .

-4 -

بلعت ساحة التغيير هزاع في وقت كان أحمد يفكر بكل ما حوله ..

ووجد نفسه يتجول صعودا ونزولا بين تعاريج ممرات ساحة التغيير بخيامها التي حوت كل شيء .. تلفزيونات ومجالس وأجهزة كمبيوتر وميكرفونات للحديث بأعلى صوت يصل مداه المدى الواسع .. وجبات طعام تأتي من المجهول يوميا . يافطات تحمل شعارات عديدة ومعاني لا يفهمها أحمد .

ثم ماذا ؟

ماذا لو محونا ذاكرة الألم وتوحدنا جميعا في لحظة نادرة جاد بها الزمن . لحظات لا تباع لشيطان الساسة وإنما هي للوطن لا غير .

تجول أحمد في ساحة التغيير مذهول من العمق للعمق .. يلقي بقلبه لماضي يتعبه ، رفض الناس له ويقذف بعقله للحظته تلك تزلزل كيانه لتبعث حياة الحرية والكرامة كما قال له هزاع .

وجوه .. ووجوه .. وخيام تضج بساكنيها ورقصات يمنية هنا وهناك . ما أروعك ايها الحلم القادم عبر جناح آمل شعب لا يدري كيف يصل إليك .

في الوجدان تنمو أشجار الصفصاف ،غدا ستترعرع الصغار تحت ظلالها .

لأول مرة يتذوق مرارة الدهشة بمذاق البدايات الساحرة .

يا طفلة الأمس هل كبرتي وترعرعتي في صدور هذه الناس وستزفي اليوم للفرح الموعود .

سار بين ممرات الخيام دون توقف .. هو اليوم قرر أن يكتشف ما سر توسع الساحة وإزدياد خيامها ؟ لا يمكن أن كل هؤلاء الناس على خطاء ! المشكلة كلها تكمن في (حبه لأبيه علي) ..ربما أن نداءات ساحة التغيير بدأت تصل أسوار قلبه وتوشك أن تقتحمه بالدخول .

وخيمة من نوع خاص ..

كم مدينة تنام على أحزانها المنهكة . خيمة لها سطوة العقيد عبد السلام ، أنه هو داخل خيمته بتلك العنجهية وذاك الإرباك الذي سببه لأحمد مهيوب . هل يعقل أن ذاك الرجل الذي كسر المدينة بسطوته وبسطه على أراضي الناس وفساده الذي تجاوز حدود البلاد هو ذاته الذي يجلس وسط شباب الثورة ، وهو من كان يجب أن يثوروا عليه ؟

أربكت خيمة العقيد عبد السلام أحمد مهيوب ووقف أمامها كأنما الزمن توقف هناك ، هل هو موسم الآمال الموءودة ؟ أنه يلوح للثوار بمنديله الأبيض رمزا لسلامه القادم وسيحمي الساحة من مغتصبين آخرين لها ولحلمها الواسع ، هو ذاته الذي أغتصب آمال الناس وأراضيهم .

يا للدهشة . لست وحدي الساذج . أنا كنت أظن أن المساواة تعني أن تكون سعاد لي .. وهم يظنون أن هذا الرجل ثوري بامتياز . هي السذاجة ذاتها لا فرق بين متشرد ومثقفين في ممارستهم لها حد البلاهة .

وبينما هو وسط ذهوله سمع صوت يهمس بالقرب من اذنه مباشرة :

- الثورة للجميع ونحن بحاجة للأقوياء فلا تعجب يا صاحبي .

لفت أحمد صوب الصوت الذي يعرف طبقاته تماما ، كان العم صالح صاحب العمارة يقف بجواره تماما .

- أنا مثلك يا هزاع أشعر بالغربة في هذه الساحة . واصل العم صالح حديثه لأحمد .

تنهد أحمد كحزين من ألم لا يعرف مصدره ، وقال :

- وليش عادك أجيت يا عم صالح للساحة لو أنك تشعر بالغربة فيها .

شعر العم صالح كمن يرفع الرايات لتمضي الحياة ، هو فقط يستحضر وجه أبنته فاطمة ، أبنته التي ضاقت ذرعا بكل ذاك الظلم وذاك القهر الذي مارسه والدها ضدها . حقا تلك قصة أخرى ، ومنفذ سهل لتسرب فاطمة إلى ساحة التغيير ضاربة بغضب والدها عرض الحائط .

- فاطمة يا أحمد ما عد قدرتش عليها ، قدها من المعارضة وترفع اليافطات وتحرض الشباب ضد الرئيس تشتي تودينا في داهية .
- وأنت ساكت له ؟ أدبه ؟
- تأدب من يا أحمد ؟ قد لها شهر ما تحاكينيش ، قالت لي أني مع النظام السابق ، مشنا داري منين أدت كل هذه القسوة .
- ماتحاكيش ابوها ؟ هذا قدوه كفر . ردد أحمد والألم يلوكه كبقايا شيء كان .
- أيه والله الثورة غيرت القلوب وأثرت على العلاقات داخل البيت الواحد ، أصلا لكل واحد رأي ،بس مشنا داري ليش ضروري العداوة ولا كأننا أسرة واحدة .

وأستمر العم صالح يخاطب أحمد الصامت بذاك الصمت الذي يستحق الشفقة ، كان يشرح لأحمد كيف أن أبنة صاحب العمارة المجاورة لعمارتهم عادت لأبيها مطلقة تحمل أربعة أطفال ، هكذا فقط لأنها مع النظام وزوجها مع شباب التغيير . تبا لهذه الحرائق توشك أن تأتي على الأخضر واليابس . ما الذي جعل ثورة الحرية تتحول لثورة رمادية اللون والنكهة .

كانت فاطمة قد انضمت لساحة التغيير بعد أن التقت بشباب التغيير عبر الفيسبوك ، آمنت تماما أن الحياة التي تعيشها لا تشبه حياة الآخرين وأن اليمن كانت تغرق كل يوم في فساد عفن ، قلة من المواطنين يستحوذون على ثروات البلاد والأكثرية منهم لا يجدون رمق العيش .

كانت تشعر أنها مدفونة تحت ركام ظلم عادات وتقاليد منهكة وأن كل تلك الحالة التي كانت تعيشها يجب أن تنتهي وأنها لن تنتهي إلا أن هي ثارت ضد كل صور الظلم من حولها .

وفي يوم مشمس من ايام شهر مايو مرت من جوار عمارة العم صالح مظاهرة تحتشد فيها النساء بطريقة مذهلة (ارحل .. أرحل) ، كانت أصواتهم تهز أركان الشارع ،

وأسرعت فاطمة إلى نافذتها تتأمل المسيرة بحماس سيطر على تفكيرها ووجدانها وقررت أن تعلنها لكل من وضعها خلف الشمس هكذا لأنها امرأة ، أسرعت فاطمة إلى الشارع وانضمت للمسيرة وهي تهتف بصوت أعلى من أصواتهم (ارحل .. ارحل) ،

كانت تنادي برحيل ظلم العادات والتقاليد البالية التي سجنت حياتها خلف أسوار العتمة والوحدة ، تنادي برحيل صلاح وأفكاره المتطرفة التي اعتقلت سنواتها البكر وسيطرت على والدها وجعلته يعتقد أنها الصواب وان مكان فاطمة خلف جدران بيتها لا أكثر .. هكذا كل ثائر خرج للبحث عن حرية تخصه وينادي بسقوط ورحيل من ظلمه وبدد حياته لقمة صائغة للألم ..

ومن لحظتها وفاطمة نادرا ما تعود لبيتها ، وان فعلت فذلك لجلب ما يحتاجه الشباب في ساحات التغيير من المال أو الإسعافات الأولية أو حتى الكتب والمراجع لمن يعدون المحاضرات فوق منابر منصات الساحة .

كانت فاطمة قد تمردت على والدها وقالت له انها تعيش حالة وطنية كانت ممنوعة من التداول واليوم لن يقف أحد في وجه الطوفان .

أما سعاد فلم يكن لها في تلك الأمور لا ناقة ولا جمل ، فقد كانت الأحزان تشتعل في حلقها بمرارة شديد ، لم تعفيها ذاكرتها من وجع تجربة الزواج تلك . فكانت امرأة تنام كل ليلة على احزانها قاسية الزمهرير ، لم يكن ذاك الطوفان يعنيها في شيء فقد كان لتمرد فاطمة وعصيانها لوالدها إدانة كافية لما يحدث من وجهه نظر سعاد . لاشي يستحق كل هذه الفوضى وكل تلك القوافل من الشهداء ، كيف تضمن أن القادم أجمل وأن التغيير لن يخلخل لبنة الوطن مثلما زلزل حوائط الأسرة الواحدة بين مؤيد ومعارض . هكذا وجدت سعاد نفسها تأخذ ركنا قصيا من وضع لا تفهمه وترحل الى القاهرة حيث قضت عدة شهور فيها ،

كان العم صالح لا يزال يتبادل مع أحمد أطراف الحديث وسط زحمة ساحة التغيير ، عندما سمعا صوت يخترق المكان غاضبا :

- زهقتونا الله لا سامحكم ، تفتيش بالخرجة وتفتيش بالدخلة كأن الشارع حق أبتكم . الله ينصرك يا علي عبدالله صالح على هذولا الهمج .جننونا في عيشتنا غناء ورقص وخطابات لاوجه الفجر .

كانت جملة " الله ينصرك يا علي عبد الله صالح " هي أكثر ما لفت انتباه أحمد ،

إذن لا يزال هناك من يحب أبي صالح .. لست وحدي .. لن أشعر بالغربة ثانية ..

اسرع أحمد صوب الرجل تاركا العم صالح حيث يقف مراقبا لأبنته فاطمة حاميا لها كما يقول ، وتوجه بالسؤال للرجل :

- ايش فيبك ، ليش أنت غاضب.

- ياخي الشباب أحتلوا شارعنا ونصبوا الخيام وقلنا سهل لا قدهم صدق عيخرجوا البلاد لاطريق . بس تفتيش وفوضي ، والله أنني امس ما قدرت أشل مرتي للطبيب الا وقدنا خايف لاعاد تولد بالطريق وهم جالسين يفتشوا ويستفزونا وكأنها شوارع أبتهم .

كان الرجل غاضبا لا يتوقف عن التذمر .. هذه الساحات غيرت ملامح حياتهم واعتقلت حريتهم وحقهم بالحياة الكريمة الخالية من مهانة التفتيش أكثر من مرة في اليوم عند الدخول والخروج ، وإزعاج مكرفونات منصات التغيير حتى الأطفال لم يعد لهم متر واحد يلعبون فيه في هذه الساحات ..

" لكل حلم جميل تضحياته والقادم الاجمل يستحق صبر سكان الحارات ان ارادوا العيش بكرامة " .. هكذا أجابه هزاع عندما سأله أحمد عن ماهو ذنب سكان الساحات .

سيأتي وطن المحبة والسلام ، حاملا أحزان اغتراب ساكني الحارات التي استوطنتها الخيام وغيرت مجرى الحياة فيها . أصبحت تلك الحارات تعيش حالة من السطوة تصل حد الشراسة ،

ود أحمد لو يصرخ بأعلى صوته يا صنعاء لا تقنطي ، سيختار الله مافيه الخير لك دونما شك .

لم يكن يدرك أحمد أن كل المدن اليمنية أصبحت تعيش الحالة ذاتها .. وأن لا مجال للعودة للخلف قيد انملة .

ربما أن الزمن القادم يستحق كل هذه التضحيات . وأن أرواح الشهداء ستتفاوض معنا لنصل لحل لا يزيد من أعدادهم . هي صحوة شعب كما قال هزاع ، صحوة لا يأتي النوم بعدها أبدا . فيكفي كل ذاك الفساد الذي كان وكان لابد من تغيير يأتي . هكذا فكر أحمد وهو يجر قدميه عائدا لرصيفه المقصي القريب من ساحة التغيير .

هذا الحزن المبهم في صدري يجب أن ينتهي ، القادم أجمل دونما شك ، وكل هذه الحشود من الشباب الذين تركوا أسرهم وبيوتهم يدركون جيدا ما يفعلون حتما ، وأنا أحمد مهيوب الثوري العتيق لن أكون أقل منهم شأنا في حب وطني ..

ظل أحمد يحاول إقناع نفسه أنه لا يختلف مع هذه الساحات التي باتت تنتشر في كل مناطق اليمن..

الضحية الاخيرة

-1 -

لا شيء تغير..

مغفرة الله وسعت الأرض والسماء .

لازالت ذاكرتي تجر خلفها ذيول الخيبة والفاجعة ، كيف يمكن للوطن أن يتحول إلى مربع للموت يتربص بنا من كل زواياه الأربعة . لعنة الله على السياسة تلك التي ما فهمتها أبدا . ما عدت أرى وجه صنعاء فالضباب يحيطها من كل صوب ، ومازلت أجد صعوبة في التنفس وأغرق في فراغ ليلي إلا من صوت الحشرات ذاتها تطلق صفيرها المستفز وهي تتسكع فوق قماش كيس نومي وتستبيح تضاريس جسدي الممتد داخله باستهتار به الكثير من الاستخفاف بالعبد لله .

أغمض عيني لأسترجع جنون كل ما قد كان حدث بالقرب مني ولا يزال .. تصارعني عاصفة هوجاء بداخلي ، وصوت ساحة الجامعة يأتيني جريحا وجارحا . يا لله أين سارت ثورة التغيير تلك . ولماذا للأجواء رائحة الحداد الأسود ؟ ولما أصبنا الوطن بحمى الموت والرصاص والفتنة في وقت خرجنا نرسم ابتسامة أجمل على ثغره؟

- اليمن محروسة برحمة أرحم الراحمين . قد قال سبحانه " بلدة طيبة ورب غفور ".. ولا ما حنا يا غارة الله .
- أيوة والله مانا داري أيش وقع بنا ؟ مش قلنا سلمية ؟ وصدقتكم من صدقي!
- طبعا سلمية وعادها سلمية ، خليك من الثانين كلهم مجانين .
- والله ما مجنون إلا أنا يا صاحبي .

كم من الوقت سُرق منا ؟ كم من الخسارات لحقت بنا ؟ كيف خُدعنا ؟ شهور مليئة بالضجيج .. بالفراغات الكثيرة .. كنت أسمع شباب حارتنا يرددون ((سرقوا ثورتنا)) وضجت الساحات بالفاسدين .

الله وأكبر عليك واهزاع .. ما الذي يحدث ؟

حتى رصيفي المقصي كُسرت حوافه بأيديهم ليجعلون منها حجارة ترتد على صدر مقبل ، ومحمد، وسارة، ومريم ..و..و..

و تضيع الحقيقة خلف كل تلك الوجوه المربكة حد الإنهاك .. ويضيع رصيفي، وحتى الزلابيا والشاي في قصعة الفول الصدئة .. لم تعد تصلني فزاد جوعي اشتعالا وضراوة ، وحتى خرقتي النتنة سقطت ولم أعد أجد ما أمسح به زجاج السيارات ..

وهمت على وجهي ابحث عن ثورة بلون قميصي المترب ورائحة كيس نومي الذي لا يعرف الماء .. همت أبحث عن ثورة يمنية بنكهة البن ورائحة عرق المتعبين . تبا على الحقيقة .كم وجه لها !

كنت كل صباح أخرج راسي من كيسي ، اتأمل السماء بحذر شديد خوفا من رصاصة قناصة تسقط من سطح عمارة ويتلقفها جسدي الممد على رصيف النسيان . أتأمل بالحذر ذاته نافذة غرفة فاطمة المغلقة من شهور وكأنها لا شيء سوى حواف خشبية شاخت وهجرها سكانها ..

وفي صباح تمترس في مكانه بذاكرتي ، كنت أتملص من كيس نومي بكسل شديد متأملا طابور السيارات التي كستها أتربة الانتظار على محطة البترول المقفلة في الشارع الخلفي ، سيارات تركها مالكوها حيث تقف منذ أكثر من أسبوع بعد أن أجبرهم اليأس من الحصول على البترول ، أجبرهم على ترك سياراتهم لرحمة كل من تسول له نفسه سرقتها .

في ذاك الصباح الفريد رايتها قادمة من بعيد تقود سيارتها بنفسها هذه المرة .. الدكتورة أمل . ياالله ..أين كانت .. شهور طويلة لم اراها حتى مرة واحدة .خرجت من كيسي مسرعا ورفعت يدي في الهواء محاولا استيقافها .

توقفت سيارة الدكتورة أمل وخرجت منها مبتسمة كعادتها ، فأسرعت أسالها :

- دكتورة أمل فينك من مدة .
- كنت لستة أشهر في القاهرة ، هروبا ربما من وجع مزمن !.

كانت الدكتورة أمل تشعرني أن الدنيا بخير ، فقد كانت الصورة الاجمل التي بها سنتحدى كل الصعاب .

سألتها عن الدكتور الذي أهداني ذات يوم مذياعي الجميل وبطانيتي الوحيدة وهذا البنطلون والقميص الذي لم أعد أملك غيره – أنا لا أنسى الجميل ابدا – وقد كنت أفكر به خلال الفترة الماضية ، لا أدري لماذا كنت قلقا على رجل لم اراه الا مرة واحدة ، هكذا نحن البسطاء وضع الله فينا انسانية البشر جميعا ..أو ربما لانه من النظام الذي ينادون بإسقاطه وكنت قلقا أن يسقط وهو أكثر من قابلت في حياتي طيبة وعطاء .

أقتربت من الدكتورة أمل .. سألتها ،

سألت الدكتورة أمل عن الدكتور، فأخبرتني أن رصاصة مجنونة من قناصة عبرت ظهره دونما رحمة واصابته بشلل نصفي . لكنه قبل أسبوع عاد للوطن شبه معافى !!

قالت لي متحدثه عن ذاك الدكتور الذي رأيته مره واحده ولم أنساه:

ها هو عاد اليوم الى المدينة التي تشبهه حد الدهشة .. المدينة ذاتها التي تسلقت نوافذ الصبر شهور عدة و هو في منافي الوجع ومرافئ الرحيل الاجباري ..المدينة ذاتها التي ذرت الرماد على الذاكرة حتى تتناسى جنونها معه .. طيشها العالق باطراف العبث المحموم .. كيف حدث ان ارتدت ملامح وجهه تفاصيل الشوارع وزوايا الامكنة فيها ..تجبرني عودته ان اصعد الطابق العلوي للذاكرة .. لتتحرش بي أصوات الرصاص وجنون القناصة فوق أسطح العمارات والنوايا ، اتذكر اجابته لسؤالي الذي لم اسأله ابدا : **ذاكرة الوطن هي ذاكرتي ونبضه يدق في صدري انا** .. اي اجابة هي تلك !! ربما هي صفقة تحترف التسامح لكل ما سيأتيه بعدها ؟ هكذا هو يقف دوما في قمة اللحظات الشاهقة للدهشة دونما معاناة من دوارها .. وهكذا هي عودته .. جسر وصل به بين الامس والغد لترحل عبره كل الخيبات السابقة ولا يبقى سوى الوطن ينبض بالحياة في صدورنا جميعا.

كانت الدكتورة أمل تحدثني ومذياع سيارتها يطلق أغنية عبدالله الجسمي .. تلك الاغنية التي أصر محبو أبي علي عبدالله صالح أنها له ..وله فقط ..

هي الاغنية التي أدمنها محبو الماضي ورافضي التغيير .. أو ربما المخدرون بالقات والخوف

شوف الجبل واقف والا هزته ريح

شوف القمر عالي ولايمكن يطيح

انا الجبل في عزتي وفي وقوفي

و البدر من طولي توسد كتوفي

وان كنت تبغي ياوفا العمر توضيح

ما اطيح من هزة ولاتهزني ريح

وانا لو اني من الزمن صرت ضايق

بس اشكره جدا كشفلي حقايق

وانا ابد ما اخطيت في حق ناسي

ولا لوقتي يوم وطيت راسي

-2 -

ربما أني ضحية 33 سنة من الفساد كما قال هزاع ، وقد أكون ضحية هذه الرواية منذ بدايتها ، فوحدي من لم يفهم ماذا حدث ولا لماذا حدث .. وما كان ممكنا أن تستمر حياتي كما كانت قبل تغير ملامح رصيفي ومشاركة تلك الخيام لي في شارعي والشوارع المجاورة ، ولا كان بالإمكان أن أقتنع أن أبي علي طاغية وفاسد .

كنت لا أزال مذهولا أمام إرتباك أفكاري ،

وتأتيني سعاد في كل ليلة تذكرني أنها الحلم الأجمل الذي لم يكتمل أو ربما – الذي لم يبدأ بعد -

بعد شهور ستة مازلت ألتحف أحلامي القديمة .. كيس نومي لا يزال بيدي، اقتات هدوء نفسي من حلم عتيق علق في زوايا ذاكرتي التي خانتني ذات وهج لحماس زينته أصوات الشباب التي تشبه كثيراً كلمات هزاع العالقة فوق جدار نومي .. هل سندخل التاريخ من باب نصفه مكسور؟

هل سنبتلع ريقنا لنختنق في منتصف الطريق ؟ طاقة من اعتراف الندم تأكل أطرافي وشعر رأسي الذي لم أحلقه منذ الشهورالستة ، وذقني الذي طال دون تهذيب حتى بت غريب الصورة

كنت دوما أسمع سعاد تخاطبني من برج حلمي العقيم :

- أحلق راسك و ذقنك يا أحمد حتى لا تتشبه بمجانين الشوارع .
- وهل أنا غير هؤلاء ؟ لن أحلقهما حتى تحقق الثورة أهدافها .

مازالت السطور تزداد في قائمة الشهداء في كل الجهات ، رصاص القناصة المسعور يتربص بالحياة في كل صوب وحدب ،فذاك شاب ثوري وذاك مواطن لا حول له ولا قوة والأخر جندي والأخير طفل أظل الطريق .. كلا منم حصد نصيبه من جنون قناصة الجنون .

تتوالد الأيام من رحم صعاب قادمه ،

لا بترول ولا كهرباء ولا ديزل ولا ماء ... الأخيرة بالذات تهمني أنا شخصيا ، أما حياتي فمظلمة وواقفة فوق رصيفها دائما منذ عُدتَ من جدة .. لا حاجة لي بالبترول ولا بالكهرباء .. مهلاً .. الكهرباء ربما تخصني أيضا فإضاءة الشارع من حولي وعمارة العم صالح بجواري مهمة ولهذا زاد انعدامها من وحشتي وأطال ليلي حتى شعرت مرات عديدة أن الفجر أضاع الطريق ولن يعود برحمته ... الا هزاع كان سعيد دوما يغني للثورة وصوته يغازل في نفسي رغبتي بالحياة القادمة التي وعدني بها هزاع وما يزال ..

صوته يتفتق كل صباح من نافذته المفتوحة على مكان نومي فوق رصيفي مكسر الحواف مباشرة :

اليمن بخير .. ونحو المدنية ..

كان لابد أن لا أخاف وانا أستيقض كل يوم على صوت هزاع وجملته تلك ..

في الواقع كنت لازال لا أفهم ماذا تعني كلمة المدنية رغم كونها مرسومه بخطي الركيك فوق جدار رصيفي ..

كان دائما عدم فهمي يربكني .. وماحولي يربكني اكثر ..

قبائل منتشرة في كل الشوارع والحارات ، مسلحة ، لا تعرف الأبيض من الأسود ، تستفزني أكثر مما تستفزني حشرات الليل وصفيرها .

اليمن بخير داخل دوامة لا منفذ لمخرج من مساراتها شائكة التعقيد .

الدبابات متناثرة عند مداخل الطرقات . الجنود مبعثرين فوق أرصفتها المتآكلة يزيدون من قتامه الأيام ووحشتها .

العرافة

-1-

أية يا وطن ! سأنتظرك عندما تشرق الشمس من جديد، سأحتمل ضيقي وخوفي وغربتي فيك ، سأحتمل رياحك القادمة صوبي مباشرة محملة بعواصف تكاد تقتلعني من جذوري !

يا لله هذه المدينة خلقها الله جميلة ، والأهم صابرة . فكم صبرت على جنون أبنائها .

صوت العرافة مازال يتقاطر على أذني :- القادم لابد أن يكون أجمل ، وشهداء الأرض ستحلق في السماء حمام للسلام والحب .

تتقاذفني حيرتي ، وأعود ألى رصيفي أفترش كيس نومي والتحف ذاكرة منهكة .

تهاجمني صورة العرافة كما لم تفعل من قبل ، لعله صدق النبؤة ، صوتها يتحرش برغبتي الشديدة بسماع مذياعي العزيز لعلي أنسى مخاوفي التي لا أدري كيف أجادلها لتترفق بي .

- القادم لابد أن يكون أجمل ..

يتسكع صوت العرافة على حواف أذني فلا انام ..

صدقتي يا سيدة التنجيم والشعوذة، هاهي الايام تتلون بالابيض ، وهاأنا اشعر أنني بدأت أتذوق معاني كلمات جداري. .. فقط ربما نحن شعب لم نتذوق الفرح دون شوائب الخوف ، هكذا نحن ، ربما هي جينات متوارثة وربما هو جنون متوارث ..لا فرق .

كان للخالة صفية العرافة مكانة خاصة في قلبي . تمنيتها اليوم بالذات وأنا أتأمل نجوم السماء التي قلت عن عادتها كثيرا رغم الظلام الدامس الذي فرضه الانقطاع الكلي للكهرباء على صنعاء كلها .تذكرت حديثها الأخير معي :- لا تخف يا ولدي هذه البلد محمية ؟

أين أنتي يا خالة صفية فقد صدقتي . كم أتمنى ان أجد مسلك اليكِ .

لازلت أتذكر صورتها الاخيرة وجملتها التي لم تقل بعدها الا ما يصلح لأن يكون أسما لهذه الرواية ، لانها أختصرت بها كل القادم :

- الزمن لا يعود للخلف .

قالتها الخالة صفية وقبضت على عصاها وقذفتني بنظرة لم أفهما وقالت وهي تدير لي بظهرها

- ياولدي ..إنها صرخة وطن !!

صنعاء يناير 2012